مقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة

دكتور الشحات محمد أبو ستيت

دكتور الشحات محمد أبو ستيت
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

مطبعة الأمانة
٣ شارع جنينة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد ..

فالكلمة هى اللبنة الأساسية فى بناء الأسلوب ، منها يتشكل ، وعليها يقوم ، ومن ثم عنى بها العلماء والأدباء ، وأهتم بها المتكلمون والمؤلفون ، ووضع لها أرباب البيان من المقاييس ما يجعلها خالصة مما يشينها فى مادتها أو صورتها أو معناها ، لتكون عماد أسلوب بليغ يقنع العقل ، ويمتع الوجدان .

وقد بدأت مقاييس فصاحة الكلمة بملاحظات ووصايا ، وتطورت على أيدى الأدباء والنقاد الى مبادىء محددة ، وأسس منضبطة ، لا ينبغى لقائل أن يحيد عنها ، حتى لا يفقد كلامه سمة الفصاحة ، التى هى مناط الابانة والافهام .

هذا البحث يرصد المقاييس البلاغية لفصاحة الكلمة فى تراث البيانيين عبر العصور المختلفة ، ويلقى عليها الضوء ، محللا ، ومقارنا ، وناقدا ، وسيقوم على فصلين :

الفصل الأول : يتناول مقاييس فصاحة الكلمة عند المتقدمين ، بدءا من الملاحظات المتفرقة ، وانتهاء بالمقاييس المحددة عند ابن سنان الخفاجى ، الذى تعد دراسته قمة البحث فى هذا الموضوع .

والفصل الثانى : يتتبع مقاييس فصاحة الكلمة عنـد المتأخرين ، بداء من البغدادى ، وانتهاء بالخطيب القزوينى وشراح تلخيصه .

والله أسأل التوفيق والسداد ، والقبول والنفع ، انه نعم المولى ونعم النصير .

مكة المكرمة — دكتور الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت

فى ١٧/١٢/١٤١١هـ — الأستاذ المساعد بجامعة الأزهر

٢٩/٦/١٩٩١م — وجامعة أم القرى

الفصل الأول

فصاحة الكلمة عند المتقدمين

بداية فطرية :

طبع الله العرب على فصاحة التعبير ، وبلاغة القول ، فكان البيان من مفاخرهم ، والطلاقة من مآثرهم . يمدحون بشدة العارضة ، وقوة المنة ، وظهور الحجة ، وثبات الجنان ، وكثرة الريق ، والعلو على الخصم ، ويهجون بخلاف ذلك (١) .

قال زبان بن سيار الفزارى مفتخرا :

وقلنا بلا عى وسسنا بطاقة ... اذا النار نار الحرب طال اشتعالها

وجعلوا الحصر والعى والعجز من الخرق ، كانت فى الجوارح أم فى الألسنة وتعوذوا من ذاك فقال النمر بن تولب :

أعذنى رب من حصر وعى ... ومن نفس أعالجها علاجا

وضربوا المثل فى البيان بسحبان ، والمثل فى العى بباقل ، وقال حميد بن ثور الهلالى :

أتانا ولم يعدل له سحبان وائل ... بيانا وعلما بالذى هو قائل
فما زال عنه اللقم حتى كأنه ... من العى لما أن تكلم باقل (٢)

وذكر الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام حالهم فى بلاغة المنطق ، ورجاحة الأحلام ، واللدد عند الخصومة فقال تعالى : « فاذا

---

(١) البيان والتبيين : ١/١٧٦ .
(٢) السابق : ١/ ٣ ـ ٦ .

ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد » (٣) وقال عز وجل : « لتنذر به قوما لدا » (٤) ، وقال جل شأنه : « ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام » (٥) . كما ذكر الله تعالى خلابة ألسنتهم ، واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم فقال سبحانه : « وان يقولوا تسمع لقولهم » (٦) ، وقال عز وجل (٧) : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا » (٨) .

وجدير بهؤلاء القوم وقد اتصفوا بالبلاغة وحسن البيان ، أن يكون لديهم بصر بضروب الكلام ومسالكه ، وقدرة على تمييز جيده ورديئه ، وأن يعملوا على تجويد قولهم ، وتهذيب ألفاظهم ، وانتقاء الملائم منها للمقامات المختلفة .

وهذا ما ثبت لهم ، وأثر عنهم ، وعرفوا به ، ولا أدل على ذلك من نقدهم ألفاظ الشاعر حين يرونها غير دقيقة أو لا تفى بالمقصود (٩) . ومن تحبيرهم القصائد وتثقيفها لتظهر فى أدق صورة وأبهى حالة . ومن شعرائهم من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا ، وزمنا طويلا ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاما لعقله ، وتتبعا على نفسه ، فيجعل عقله زماما على رأيه ، ورأيه عيارا على شعره ، اشفاقا على أدبه ، واحرازا لما خوله الله تعالى من نعمته .

---

(٣) الأحزاب : ١٩ .

(٤) مريم : ٩٧ .

(٥) البقرة : ٢٠٤ .

(٦) المنافقون : ٤ .

(٧) البقرة : ٢٠٤ .

(٨) البيان والتبيين : ١/٨ ، ٩ .

(٩) ينظر الأغانى : ٩/٣٤٠ .

وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات ، والمقلدات ، والمنقحات ، والمحكمات ، ليصير قائلها فحلا خنذيذا وشاعرا مفلقا (١٠) •

ولم يقتصر التحبير والتهذيب وانتقاء الألفاظ على الشعر ، فقد كانوا يستعملونه فى الخطب ، وما يعدونه من كلام للأمور المهمة ، فكانوا اذا احتاجوا الى الرأى فى معاظم التدبير ومهمات الأمور ميثوا ــ ذللوا ــ الكلام فى صدورهم ، وقيدوه على أنفسهم ، فاذا قومه الثقاف وأدخل الكير ، وقام على الخلاص ، أبرزوه محككا منقحا ، ومصفى من الأدناس مهذبا (١١) •

وقد نقل الرواة عن العرب من الملاحظات النقدية الشىء الكثير الذى ينطوى على علم صحيح موافق للقوانين التى وضعها البلغاء بعد ازدهار علوم العربية (١٢) •

ونزل القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين : ميسر للذكر ، منزه عن التكلف ، فبهرهم ببلاغته ، وسحرهم ببيانه ، وأعجزهم بنظمه ، وأرشدهم الى مناهج فى القول لم يقفوا عليها • ودفعهم هذا الى ادمان النظر فيه ، وشدة التأمل له ، والتأسى به فى ألفاظه وأساليبه ومعانيه •• وكان لهذا أثره البالغ فى تهذيب لغتهم ، وأحكام أساليبهم ، وتخير معانيهم (١٣) •

تعلموا من القرآن الكريم أن يدققوا فى اختيار الألفاظ التى يعبرون بها عما فى نفوسهم ، لتدل على المقصود دلالة واضحة لا غموض فيها ولا التواء •

---

(١٠) البيان والتبيين : ٢/٩ •
(١١) البيان والتبيين : ٢/١٤ •
(١٢) ينظر منهاج البلغاء : ٣٦ •
(١٣) أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية : ١٢ ، ١٣ •

فقد حث على ألا يستخدم لفظ مكان آخر حسبما يفهم من قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » (١٤) ، فهى لا يرى التهاون فى استعمال اللفظ ، ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه • ولما كانت كلمة « راعنا » لها فى العبرية معنى مذموم ، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم بها فقال : « يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » (١٥) فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ يؤدى به المعنى (١٦) • وقد استفاد المسلمون من هذا النهج القويم •

وأثر فيهم بيان النبى صلى الله عليه وسلم وهو أفصح العرب ، ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أقصد لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين فى فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم (١٧) •

وفى أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ما يدل على أنه كان يعنى أشد العناية بتخير لفظه ، فقد أثر عنه أنه كان يقول : « لا يقولن أحدكم خبثت نفسى ، ولكن ليقل لقست نفسى » كراهية أن يضيف المسلم الخبث الى نفسه (١٨) •

ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم الى التزام السهولة فى الكلام ، وعدم التكلف فى النطق ، ونهى عن التشادق والثرثرة فقال : « اياى

---

(١٤) الحجرات : ١٤ •
(١٥) البقرة : ١٠٤ •
(١٦) من بلاغة القرآن : ٥٧ ، ٥٨ •
(١٧) البيان والتبيين : ١٧/٢ •
(١٨) الحيوان : ٣٣٥/١ ، والبلاغة تطور وتاريخ : ١٤ •

والتشادق » ، وقال : « أبغضكم الى الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » ، وقال : « ان الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها »(١٩) ٠

وعاب صلى الله عليه وسلم سجع الكهان ، لما فيه من تكلفه فى اللفظ ، وتشادق فى النطق (٢٠) ٠ وجانب أصحاب التقعيب ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصود فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى (٢١) ٠

وفى كل ما تقدم عنه صلى الله عليه وسلم دعوة واضحة الى اختيار الكلام السلس ، البعيد عن التكلف والغرابة والسوقية والمعبر عن المعنى تعبيرا دقيقا ، لا لبس فيه ولا ايهام ٠

ومضى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على هديه فى احكام القول ، والتدقيق فى استعمال الكلمة لما لها من خطر عظيم ، وكان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ذا حس دقيق بالكلام ومواقعه ، ومال الى الأحنف بن قيس لما رأى من رفقه ، وقلة تكلفه ٠ وفضل زهيرا لأنه كان لا يعاظل فى المنطق ، ولا يتتبع حوشى الكلام ٠ وقد استفاد قدامة ابن جعفر من هذا ، فجعل من عيوب الألفاظ : الغرابة والحوشية ، والمعاظلة ، واستشهد بقول عمر بن الخطاب فى ذلك (٢٢) ٠

وفى العصر الأموى تغيرت الحياة العربية ، وتطورت النظم ، ونشأت الفرق السياسية والدينية ، واتسع مجال الشعر والخطابة فى

---

(١٩) البيان والتبيين : ١/١٣ ، ٦٣ ، ٢٧١ ، ٢/٢١ ٠
وينظر الجامع الصغير : ١/٧٤ ٠
(٢٠) البيان والتبيين : ١/٢٨٧ ٠
(٢١) البيان والتبيين : ٢/١٧ ٠ والتقعيب : كالتقعير وهو أن يتكلم بأقصى قعر فمه ٠
(٢٢) نقد الشعر : ١٧٢ ، ١٧٦ ٠

مجالس الخلفاء والأمراء وفى المحافل والمناسبات ، ونهضت الخطابة بوجه خاص حتى عاشت عصرها الذهبى ، وبرز خطباء متميزون ، شهروا بالفصاحة وضرب بهم المثل فى البلاغة ، ومنهم الأحنف بن قيس الذى دخل على معاوية وأثر فيه بحلاوة بيانه فقال له : لقد أوتيت تميم الحكمة مع رقة حواشى الكلام (٢٣) .

ومنهم خطباء الوعظ الذين بلغوا الغاية فى روعة البيان ، وفى مقدمتهم غيلان الدمشقى ، والحسن البصرى ، وقد كان الأدباء يحفظون كلام الحسن وغيلان حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية (٢٤).

ومن الخطباء زيد بن على بن الحسين ، وكان لسنا جدلا يجذب الناس بحلاوة لسانه وسهولة منطقة وعذوبته (٢٥) .

ونتيجة للتطور الكبير الذى طرأ على الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية وما صحبه من نهضة علمية ، واتساع مجال القول ، وازدهار الخطابة والشعر ، كثرت الملاحظات النقدية ، ونما النظر فى فصاحة الكلام ، وما يلزم لذلك من اختيار الألفاظ ، وتخليصها من التنافر والتكلف ، والحوشى ، والمبتذل لتؤثر فى الأسماع والقلوب(٢٦) .

العصر العباسى الأول :

كثرت الملاحظات البلاغية فى هذا العصر ، واتسعت لتتناول جوانب الأسلوب ، ومقامات الكلام ، وضوابط البلاغة ، وأدوات البليغ .

---

(٢٣) البيان والتبيين : ٥٤/١ .
(٢٤) البيان والتبيين : ٢٩٥/١ ، والبلاغة تطور وتاريخ : ١٥ .
(٢٥) البينا والتبيين : ٥٨/١ ، والبلاغة تطور وتاريخ : ١٤ .
(٢٦) ينظر البلاغة تطور وتاريخ : ١٥ ـ ١٨ .

وقد أعدت لذلك أسـباب مختلفة ، منها ما يعود الى تطور النثر والشعر مع تطور الحياة العقلية والحضارية ، ومنها ما يعود الى نشوء طائفتين من المعلمين عنيت احداهما باللغة والشعر ، وعنيت الأخـرى بالخطابة والمناظرة واحكام الأدلة ودقة التعبير وروعته (٢٧) •

وقد عملت هذه الطوائف المختلفة على تنمية العناية بانتقاء الألفاظ وتهذيبها ، ووضع ضوابط لما يختار منها ، وبرز فى هذا المجال على وجه الخصوص الكتاب والمتكلمون •

فأما الكتاب فقد كانوا يختارون من الفصحاء البلغاء ، وقد تحولوا بالدواوين العباسية الى ما يشبه مدرسة نثرية كبيرة ، اذ كانوا يتعهدون من تحت أيديهم من صغار الكتاب ، ويأخذون أنفسهم بالتثقف ثقافـة واسعة ، حتى وقفوا على تصاريف الكلام ووجوه استعماله ، وميزوا بين جيده ورديئه ، ومتبوله ومرذوله ، مما جعل الجاحظ ينـوه بهـم طويلا (٢٨) فيقول : أما أنا فلم أر قطة أمثل طريقـة فى البلاغـة من الكتاب ، فانهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشـيا ولا ساقطا سوقيا (٢٩) • ويقول : ورأيت عامتهم لا يقفون الا على الألفاظ المتخيرة ، والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة (٣٠) •

ومن هؤلاء الكتاب النابهين يحيى بن جعفر بن يحيى البرمكى الذى وصف بأنه أنطق الناس وجمع الهدوء ، والتمهل ، والجزالة ، والحلاوة ، وافهاما يغنيه عن الاعادة(٣١) •

---

(٢٧) البلاغة تطور وتاريخ : ١٩ •
(٢٨) السابق : ٢١ •
(٢٩) البيان والتبيين : ١٣٧/١ •
(٣٠) البيان والتبيين : ٢٤/٤ •
(٣١) السابق : ١٠٥/١ •

وسألة ثمامة بن أشرس عن البيان فأجابه بقوله : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك ، وتخرجه عن الشركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة ، والذى لابد منه أن يكون سليما من التكلف ، بعيدا من الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التأويل (٣٢) .

فبين فى هذه الاجابة الموجزة صفات اللفظ الفصيح الذى ينهض عليه البيان الحسن ، وهى : احاطته بالمعنى ، وكشفه عن المراد ، ودقته فى التعبير عن المعنى ، وسلامته من التكلف والتعقيد ، والغموض . ومن هذا النبع الأصيل ونظائره استقى البلاغيون ضوابطهم فى فصاحة الكلمة .

وأما المتكلمون فقد كانوا يعنون بمسائل البيان والبلاغة ، لاتصالها بما كانوا ينهضون به من الخطابة والمناظرة فى مسائل الكلام (٣٣) . وقد بلغ متكلموا المعتزلة شأوا بعيدا فى الخطابة والجدل والمناظرة ، واهتموا بتعليم الناشئة أصول البيان وأسس البلاغة ، مستعينين بثقافتهم الواسعة فى الدين واللغة ، والفلسفة والمنطق .

وقد أشاد الجاحظ بحسن بيانهم، وطلاقة لسانهم، وقوة حجتهم، وسعة ثقافتهم ، وقال فى وصف ثمامة بن أشرس أحد رءوسهم : ماعلمت أنه كان فى زمانه قروى ولا بلدى ، كان بلغ من حسن الافهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه ، وكان لفظه فى وزن اشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه الى سمعك بأسرع من معناه الى قلبك (٣٤) .

---

(٣٢) البيان والتبيين : ١/١٠٦ .
(٣٣) البلاغة تطور وتاريخ : ٣٢ .
(٣٤) البيان والتبيين : ١/١١١ .

ولا غرو فى ذلك فقد كان لمتكلمى المعتزلة أثر جليل فى تجلية كثير من المسائل البلاغية ، ومنها ما يتعلق بالألفاظ وفصاحتها ، والمقامات ومراعاتها فى الكلام •

وكان بشر بن المعتمر ت ٢١٠ هـ من أوائل الذين دونوا صحفا فى البلاغة ، لارشاد الخطباء والمتكلمين ، ونصح الشعراء والمتأدبين ، وتعريفهم بمواصفات الكلام البليغ •

وقد روى الجاحظ فى بيانه هذه الصحيفة كاملة ، وجعلها نبراسا يستضىء به فى حديثه عن الألفاظ والمقامات (٣٥) •

وقد جاء فى صحيفته ما يخص الألفاظ وتجويدها ، مما يعد أصلا لما ذكره البلاغيون فى فصاحتها بعد ذلك •

فقد أوصى بأن يكون اللفظ رشيقا عذبا وفخما سهلا • وحذر من استعمال الوحشى فقال : واياك والتوعر ، فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك •

وخير الكلام عنده ما كان وسطا لا غرابة فيه ولا ابتذال ، والبليغ التام هو من يستطيع ببيانه أن يفهم العامة معانى الخاصة ، ويكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء •

والألفاظ عنده منها الكريم وغير الكريم ، ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما (٣٦) •

---

(٣٥) البيان والتبيين : ١/١٣٥ ـ ١٣٨ •
(٣٦) البيان والتبيين : ١/١٣٥ ـ ١٣٩ •

وهذا يعنى أن يتخير الأديب ألفاظه وتراكيبه ، ويخلصها من التنافر والثقل ، والغريب المتوعر ، والتعقيد ، ويستعمل منها ما يلائم المقامات ويتناسب مع المعانى .

وهذه الاشارات الدقيقة كانت أساسا بنى عليه البلاغيون كلامهم المفصل فى الفصاحة .

تأليف الكتب :

وفى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى بدأ الأدباء والنقاد فى وضع المصنفات التى تهتم بالأدب والبيان مسجلين فيها ما أثر عن العرب من ملاحظات نقدية ، وما قدمه الخطباء والكتاب من وصايا تعالج بعض مسائل البلاغة ، وتناولوها بالشرح والتعليق ، وأضافوا اليها من ثقافاتهم ما يدعمها ويكملها .

ثم تطورت هذه المؤلفات الى دراسات منهجية مختصة بالبلاغة والنقد ، وتتضمن درسا لموضوع الفصاحة والبلاغة ، يشرحون فيه هذين المصطلحين ، ويبينون ما بينهما من فروق ، ويتناولون المقاييس الخاصة بفصاحة اللفظة المفردة ، والألفاظ المؤلفة ، وغير ذلك مما يتصل بهذا الدرس .

وسنعرض فيما يلى للمصنفات التى تناولت فصاحة اللفظة المفردة ، لنقف على هذا الموضوع فيها ، ونجلى جهود أصحابها ، ونبرز المقاييس التى اعتمدوها فى فصاحة الكلمة .

الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) :

دون الجاحظ كثيرا مما أثر عن فصحاء العرب من أقوال فى فضل البيان ، والدعوة الى تجويده وتنميقه وبين سبيلهم فى القول ، ونهجهم

فى التعبير ، وساق وصايا المتقدمين فى وصف البلاغة ، ونصائحهم فى تهذيب الألفاظ وانتقائها ، واهتم بشرحها ، واختار ما راقه منها ، وأضاف اليها من ذكره ما رآه لازما فى هذا المضمار ، فنبه بذلك على أسس دقيقة فى فصاحة الألفاظ بنى عليها البلاغيين من بعده •

وأهم الجوانب التى تناولها الجاحظ فيما يخص فصاحة الألفاظ ما يلى :

١ ــ اختيار الآلفاظ :

أفاض الجاحظ فى الحديث عن الألفاظ والدعوة الى اختيارها وانتقائها ، لأنها مقدمة عنده فى العمل الأدبى : فالمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى ، وانما الشأن فى اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك (٣٧) •

وتقديمه الألفاظ فى العمل الأدبى ، لا يعنى طرحه جانب المعنى ، فمن المعانى والألفاظ يبنى العمل الأدبى ، وينبغى أن يختار له أحسن المعانى ، والباسها أجود الألفاظ •

واذا كان المعنى شريفا ، واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع ، بعيدا من الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف ، صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة (٣٨) •

ومتى شاكل اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قمينا بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع ••• ومتى كان اللفظ أيضا كريما فى نفسه ، متخيرا من جنسه ، وكان سليما من

---

(٣٧) الحيوان : ٣/١٣١ •

(٣٨) البيان والتبيين : ١/٨٣ •

الفضول ، بريئا من التعقيد ، حبب الى النفوس ، والتحم بالعقـول ، وهشت اليه الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره .... (٣٩) .

والبليغ من استولى على حسن الافهام ، مع قلة عدد الحروف ، وسهولة المخرج ، والسلامة من التكلف ، وكان لفظه فى وزن اشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه الى سمعك بأسرع من معناه الى قلبك (٤٠) .

وليس فى خطب السلف الطيب ، والأعـراب الأقحاح ، ألفـاظا مسخوطة ، ولا معانى مدخولة ، ولا طبعا رديئا ، ولا قولاً مستكرها ، وأكثر ما تجد ذلك فى خطب المولدين والمتكلفين وأهل الصنعة(٤١) .

ومن ثم يجب على الأديب أن يتخير ألفاظه ، ويتفقد منهـا ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال ، فان النـاس قد يستخفون ألفـاظا ، يستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها(٤٢) .

٢ ـ البعد عن التنافر :

أوصى الجاحظ البليغ بتجنب الألفاظ التى فيها تنافر وثقل وتكلف واختيار ما كان منها سهل المخرج خفيفا على اللسان ، وفى كلامه الذى سقناه آنفا تنبيهات على ذلك ، لأن البيـان يحتاج الى تمـام الآلة ، واحكام الصنعة ، وسهولة المخرج ، وجهارة النطق ، وتكميل الحروف ، واقامة الوزن (٤٣) .

---

(٣٩) البيان والتبيين ٢/٧ ، ٨ .
(٤٠) البيان والتبيين : ١/١١١ .
(٤١) السابق : ٢/٨ ، ٩ .
(٤٢) السابق : ١/٢٠ .
(٤٣) السابق ١/١٤ .

ومن أجل الحاجة الى حسن البيان واعطــاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام بعض البلغاء اســقاط بعض الحــروف من كلامهم لـما يصادبها من هجنة بيانهم حتى استقام لهم ذلك على الدوام (٤٤) •

ولاهتمام الجاحظ بحسن البيان وبما يعترى الألفــاظ من تنــافر وثقل ، تحدث حديثا مفصلا عن عيــوب النطق ، ومخــارج الحروف ، وما يتلاءم منها وما يتنافر ، وبين أن من الحروف مالا يقترن فى كلمة ، لـما يحدث بسبب اقترانها من تنافر وثقل على اللسان فالجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير (٤٥) وبذلك فتح الباب أمام اللغويين والبلاغيين للحديث عن الحروف ، وتلاؤما ، وتنافرها والأسباب التى تؤدى الى ذلك •

وأجود الشعر عند الجاحظ ما كان متلاحم الأجزاء سهل المخارج، وحروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ، ملســا ولينــة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ، ومتنافرة مستكرهة ، تشــق على اللسان وتكده ، والأخرى تراها سهلة لينة سلسة النظام خفيفة على اللســان حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد (٤٦) •

ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر ، وان كان مجموعة فى بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها الا ببعض الاستكراه فمن ذلك قول الشاعر:

وقبــر حرب بمــكان قفــر ... وليس قرب قبر حرب قبر (٤٧)

---

(٤٤) السابق : ١/١٥ •
(٤٥) البيان والتبيين ١/٦٩ •
(٤٦) البيان والتبيين ١/٦٧ •
(٤٧) السابق : ١/٦٥ •

وبهذا يتأكد ما قلناه من دعوة الجاحظ الى انتقاء الألفاظ السهلة السلسة واجتناب المتنافرة الثقيلة •

٣ ـ تجنب الغرابة والابتذال :

يرى الجاحظ أن ألفاظ البليغ يجب أن تكون وسطا بين الغرابة والابتذال . فيجتنب الوحشى المتوعر ، والساقط العامى ، وفى ذلك يقول : وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميا ، وساقطا سوقيا ، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبا وحشيا ، الا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فان الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى (٤٨) •

والجاحظ حين أوصى باجتناب الساقط والوحشى ، لم ير بأسا فى استعمال البدوى للغريب ، لأنه لغته التى يفهمها ، ويجرى فيها على طبعه من غير تكلف ولا تعمل • وقد تأثر البلاغيون من بعده بهذا كما سنرى فى عرضنا لآرائهم •

وروى الجاحظ بعض ما يروى من كلام غريب جرى على ألسنة المتقعرين وعلق عليه بقوله : فان كانوا انما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة، فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحه ، وان كانوا انما دونوه فى الكتب ، وتذاكروه فى المجالس لأنه غريب ، فأبيات من شعر العجاج وشعر الطرماح وأشعار هذيل ، تأتى لهم مع حسن الرصف على أكثر من ذلك •••• وهذا ليس من أخلاق الكتاب ولا من آدابهم (٤٩) •

وبهذا بين رأيه فى الوحشى المتوعر ، وحث على اجتنابه لأنه ليس من سبيل الكتاب ولا من آدابهم •

---

(٤٨) السابق ١٤٤/١ •
(٤٩) السابق ٢٧٨/١ •

٤ ـ جريان اللفظ على العرف العربى :

أشار الجاحظ الى وجوب الالتزام بالعرف العربى واجتناب الملحون والمخالف للصواب ، فقال معلقا على كلام العتابى فى وصف البليغ : والعتابى حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، لم يعن أن كل من أفهمنا قصده ومعناه بالكلام الملحون ، والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه ، أنه محكوم له بالبلاغة ، وانما عنى افهامك حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء ، ومن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب، والاغلاق والابانة ، والملحون والمعرب ، كله سواء ، وكله بيانا ، كيف يكون ذلك كله بيانا ، ولولا طول مخالطة السامع العجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه (٥٠) ..

فبين أن اللفظ ينبغى أن يسلم من اللحن ، والخطأ ، وأن يكون جاريا على كلام العرب الفصحاء ، ونفى أن يكون الخطأ والملحون ، والمغلق ، من قبيل البيان . ولا يصح الحكم على الكلام بالبلاغة استنادا الى الافهام وحده ، فنحن نفهم بحمحمة الفرس كثيرا من حاجاته ، ونفهم بضغاء السنور كثيرا من ارادته (٥١) .

ومما قدمناه نرى أن الجاحظ تناول أهم المبادىء فى فصاحة الألفاظ ، وهذه المبادىء ظلت تدور على ألسنة البلاغيين من بعده ، وتناولوها بالتحليل والتفصيل فى مؤلفاتهم ، كما سنرى خلال مسيرتنا معهم .

---

(٥٠) البيان والتبيين ١/١٦١ ، ١٦٢ .

(٥١) السابق ١/١٦٢ .

قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) :

عرض قدامة فى كتابه « نقد الشعر » لنعوت الجـودة فى اللفظ فذكر أنه لابد أن يكون اللفظ سـمحا ، سهل مخـارج الحـروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة ، مع الخلو عن البشاعة(٥٢) •

وتحدث عن عيوب اللفـظ وهى : أن يكون ملحونا ، وجاريا على غير سبيل الاعراب واللغة ، وأن يركب الشـاعر منه ماليس بمستعمل الا فى الفرط ، ولا يتكلم به الا شاذا ، وذلك هو الوحشى الذى مـدح عمر بن الخطاب زهيرا بمجانبته له ، وتنكبه اياه ، فقال : كان لا يتبع حوشى الكلام » (٥٣) •

وساق قدامة أمثلة للوحشى منها قول أبى حازم العكلى فى مطلع قصيدة له :

تذكر سلمى وأهلاسها فلم أنس والشوق ذو مطرؤه (٥٤)

والقصيدة تعج بالوحشى المتوعر ، وذكر قدامه كثيرا من أبياتها ، كما ذكر أمثلة أخرى لذلك •

ومن كلام قدامة السابق نرى أنه يجعل اللفظ الجيـد ما خلا من تنافر الحروف ، والحوشية ، ومخالفة سبيل الاعراب واللغة • وهـذه العيوب سبق أن نبه عليها بشر بن المعتمر والجاحظ •

وبين قدامة أن القدماء يجوز لهم استعمال الوحشى ليس من أجل انه حسن•لكن لأن من شعرائهم من كان أعرابيا قد غلبت عليه العجرفة، وللحاجة أيضا الى الاستشهاد بأشعارهم فى الغريب ، ولأن من كان

(٥٢) نقد الشعر : ٢٨ •
(٥٣) السابق : ١٧٢ •
(٥٤) نقد الشعر : ١٧٣ • وأهلاسها : تبسمها الخفى • ومطرؤه : من طرأ عليه الأمر اذا جاءه من حيث لا يعلم •

يأتى منهم بالوحشى لم يكن يأتى به على جهة التطلب له والتكلف لما يستعمله منه ، لكن لعادته وعلى سجية لفظه • فأما أصحاب التكلف لذلك فهم يأتون منه بما ينافر الطبع وينبو عنه السمع (٥٥) •

فأجاز للقدماء استعمال الوحشى لأسباب طبعية فيهم ، فهم أعاب قد غلبت عليهم الجفوة ، واستعمالهم الوحشى ليس على جهة التكلف ، ولكن يجرون فيه على طبيعتهم وسجيتهم • وقد سبق الجاحظ الى ذلك (٥٦) •

ونأخذ على قدامة جعله الحاجة الى الاستشهاد بأشعار القدماء فى الغريب من أسباب جوازه لهم • فهذا لا ينبغى أن يكون سببا فى جواز استعمال الغريب للقدماء ، لأنهم لم يستعملوه قاصدين ذلك ، والا كان تكلفا ينافر الطبع وينبو عنه السمع ، وقضية الاستشهاد بالغريب جاءت بعد قوله بزمان طويل فلا تجعل من أسباب قوله •

أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ) :

لم يحدد أبو هلال شروطا لفصاحة الكلمة ، ولكنه تكلم عن صفات الكلام الجيد فى غير موضع من كتابه ، شارحا لوصايا الحكماء والبلغاء ، أو موصيا الشعراء والخطباء ، ومن هذه الصفات ما يرجع الى الكلمة ومنها ما يرجع الى الكلام •

فالكلام يحسن بسلاسته ، وسهولته ، ونصاعته ، وتخير لفظه ، واصابة معناه ، ••• مع قلة ضروراته بل عدمها أصلا حتى لا يكون لها فى الألفاظ أثر(٥٧) •

واذا جمع الكلام العذوبة ، والجزالة ، والسهولة ، والرصانة ،

---

(٥٥) السابق : ١٧٢ ، ١٧٣ •

(٥٦) ينظر البيان والتبيين : ١/١٤٤ •

(٥٧) الصناعتين : ٦١ •

مع السلاسة والنصاعة ، واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من حيف، التأليف ، وبعد عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب ، قبله ولم يرده ، على السمع المصيب ، استوعبه ولم يمجه ، والنفس تقبل اللطيف ، وتنبو عن الغليظ ، وتقلق من الجاسي البشع ... (٥٨) .

ومن تتبعنا لما أورده أبو هلال في الصناعتين بشأن فصاحة الكلمة ، نرى أنه أكد على الأمور التالية :

١ ـ تجنب وحشي الكلام وغريبه واستعمال سلسه وسهله ، فقد أخذ الرواة على زهير قوله :

نقى تقى لم يكثر غنيمة   بنهكة ذي القربى ولا بحقلد

فاستبشعوا الحقلد ، وهو السيء الخلق ، وقالوا ليس في لفظ زهير أنكر منه . وساق أبو هلال أمثلة كثيرة للوحشي الذي يجب اجتنابه (٥٩) .

وذم الذين يستجيدون الغريب ، ويمدحون الكلام الخشن المتوعر ، فقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام اذا لم يقفوا على معناه الا بكد ، ويستفصحونه اذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة ، وجاسية غريبة ، ويستحقرون الكلام اذا رأوه سلسا عذبا وسهلا حلوا ، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانبا ، وأعز مطلبا ، وهو أحسن موقعا ، وأعذب مستمعا ، ولهذا قيل : أجود الكلام السهل الممتنع (٦٠) .

٢ ـ تجنب السوقي والمبتذل والمرذول(٦١) : فالكلام اذا كان

---

(٥٨) السابق : ٦٣ .
(٥٩) السابق : ٣٦ ، ٥٢ .
(٦٠) السابق : ٦٦ .
(٦١) الصناعتين : ٣٧ .

لفظه غثا ، ومعرضه رثا ، كان مردودا ، ولو احتوى على أجـل معنى وأنبله ، وأرفعه وأفضله (٦٢) •

وعلى هذا فالكلام المختار ما كان وسطا لا حوشية فيه ولا ابتذال، فينبغى على البليغ ألا يدّون لفظه وحشيا بدويا ، ولا مبتذلا ســوقيا ، بل يكون لفظه ســهلا جزلا ، لا يشوبه شىء من كلام العامة ، والألفاظ الحشــوية (٦٣) •

٣ ــ تجنب التنافر وصــعوبة المخــارج ، فعلى البليغ أن يتخير الألفاظ من حروف سهلة المخارج ، لا غلظة فيها ولا جفاء (٦٤) ، فالنفس تقبل اللطيف ، وتنبو عن الغايظ وتقلق من الجلسى البشع(٦٥) •

٤ ــ تجنب ارتــكاب الضرورات • فمن عيــوب اللفــظ ارتكاب الضرورات ، كما قال المتلمس :

ان تسلكى سبل الموماة منجــدة ما عاش عمرو وما عمرت قابوس

أراد ما عاش عمرو وما عمــر قابوس (٦٦) • فارتكب الضرورة بتأنيث الفعل وهو المذكر • وشدد أبو هلال فى الحث على عدم ركوب الضرورات ، لقبحها ، واخلالها بفصــاحة الكلام فقــال : وينبغى أن تجتنب ارتكاب الضرورات وان جاءت فيها رخصة من أهل العربيــة ، فانها تشين الكلام وتذهب بمائه ، وان استعملها القدماء فى أشعارهم لعدم علمهم بقباحتها ، ولأن بعضــهم كان صــاحب بداية ، والبــداية مزلة ، وما كان أيضا تنقد عليهم أشعارهم ، ولو قد نقدت ويهرج منها

---

(٦٢) السابق : ٧٣ •
(٦٣) السابق : ١٥٥ •
(٦٤) السابق : ٦٦ ، ١٤٧ •
(٦٥) السابق : ٦٣ •
(٦٦) السابق : ١١٤ •

المعيب كما تنقد على شعراء هذه الأزمنة ويبهرج من كلامهم ما فيه أدنى عيب لتجنبوها (٦٧) .

فأبو هلال لا يرخص فى استعمال الضرورات ، ولو جاءت فيها رخصة من أهل العربية ، واستعملها القدماء لأسباب :

— أنها تهجن الكلام ، وتعيبه ، وتذهب بطلاوته .

— أن القدماء لم يعلموا بقبحها ، ولو علموا ذلك ما وقعوا فيها .

— أن القدماء أصحاب بداية ، والمبتدىء معذور فيما يزل فيه .

— أن أشعار القدماء لم تكن تنقد فى حينها كأشعار المحدثين ، ولو كانت تنقد عليهم ما ارتكبوها .

ويضرب أبو هلال أمثلة لهذه الضرورات مشيرا الى ما فيها من مخالفة . منها قول الشاعر :

ألم يأتيك والأنباء تنمى بما لاقت لبون بنى زياد

فقال « ألم يأتيك » فلم يجزم .

وقال قعنب بن أم صاحب :

مهلا أعاذل قد جربت من خلقى انى أجود لأقوام وان ضننوا

فأظهر التضعيف .

وقال جميل :

اذا جاوز الاثنين سر فانه بنشر وتكثير الوشاة قمين

فقطع ألف الوصل فى « اثنين » (٦٨) .

فهذه الضرورات وما يجرى مجراها مكروهة الاستعمال (٦٩) ،

---

(٦٧) الصناعتين : ١٥٦ .

(٦٨) السابق : ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٦٩) السابق : ١٥٧ .

وينبغى اجتنابها ومثل هذا وجه المتأخرين الى أن يعتبروا فى الكلمة الفصيحة عدم مخالفتها للقياس •

٥ ــ تجنب مشتركات الألفاظ التى لا يعرف السامع مرادها • فلا يكون كمن يريد الابانة عن معنى فيأتى بألفاظ لا تدل عليه خاصة ، بل تشترك معه خاصة معان أخر ، فلا يعرف السامع أيها أراده وربما استبهم الكلام فى نوع من هذا الجنس حتى لا يوقف على معناه الا بالتوهم • ومن ذلك قول أبى نواس :

وخبن ما يخبن من آخر   منه وللطابن أمهار

الأمهار هاهنا جمع مهر بفتح الميم من قولهم : من يمهر مهرا ، والمصادر لا تجمع ، ولا يشك سامع هذا الكلام أنه يريد جمع مهر بضم الميم فيشكل المعنى عليه (٧٠) •

وقد سبق يحيى بن جعفر البرمكى الى الاشارة الى هذا الضابط فى وصفه للبيان حيث بين أن اللفظ ينبغى أن يكون خارجا عن الشركة (٧١) • وقد بينا ذلك فى حديثنا عنه •

على بن خلف الكاتب :

تكلم على بن خلف المتوفى فى منتصف القرن الخامس الهجرى عن فصاحة الألفاظ ، وذلك فى كتابه « مواد البيان » الذى ألفه سنة ٤٣٧ هـ • فدعا الكاتب الى تخير الألفاظ ، وانتقاء الكلمات خالية من التوعر والابتذال والتنافر واللحون •

ويرى أن الأشياء التى تخرج الكلام عن أحكام البلاغة تنتظم فى ثلاثة أقسام :

---

(٧٠) الصناعتين : ٣٨ ــ ٤٠ •
(٧١) ينظر البيان والتبيين : ١٠٦/١ •

قسم يخص الألفاظ • وقسم يخص المعانى • وقسم يخص المركب منهما •

فأما القسم الذى يخص الألفاظ فينقسم ثمانية أنواع :

وهى استعمال الحوشى والمناغر والمدون ، والاستعارتان القبيحة والمعيبة ، والتعقيد ، والتطويل ، والتجميع ، والتكرير ، والمعاظلة ، والتجنيس المعيب •

وأما القسم الذى يخص المعانى فينقسم عشرة أنواع ••• وأما القسم الذى يخص التركيب من الألفاظ والمعانى فأحد عشر نوعا ••• (٧٢) •

وتحدث عن النوع الأول مما يخص الألفاظ وهو : استعمال الحوشى والمنافر والملحون ، فقال : من عيوب الألفاظ أن تكون بشعة مستوخمة قبيحة المخرج ، ثقيلة فى السمع ، حشية وحشية ، منافرة لما جرت به العادة فى الاستعمال ، قد قصد فيها الى التقعر والتعمق ، والتفاصح والتشادق ، أو أن تكون ملحونة معدولا بها عن سبيل الاعراب ، والمذهب الذى بنى عليه الكلام (٧٣) •

فبين أن من عيوب الكلمة : الغرابة والوحشية ، والتنافر والثقل، ومخالفة ما جرت به العادة فى الاستعمال ، واللحن ومخالفة العرف اللغوى •

والألفاظ عنده على ثلاثة أضرب :

ضرب متوعر حوشى معتاص ، لا يدرك ما يدل عليه حتى يعرب ويفسر ، وهذا واقع فى الأشعار الجاهلية والخطب العربية •

---

(٧٢) مواد البيان ٣٦٦ ، ٣٦٧ •

(٧٣) السابق : ٣٦٨ •

وضرب فصيح جزل سهل ، سافر المطالع ، عذب المشارع ، مطابق للمعانى أصح مطابقة ، دال عليها أقرب دلالة ، وهو الذى تخيره البلغاء لرسائلهم ، واستعملوه فى كتبهم .

وضرب مبتذل سوقى ، ساقط عامى ، وهو ما يقع فى المخاطبات والمكاتبات الدائرة بين العوام الذين لا تنقاد طباعهم الى تأليف الكلام .

وينبغى على البليغ أن يسلك فى الألفاظ مذهب التوسط الذى سلكه من تقدمه من أهل هذه الصناعة ، فانه الاعتدال ولا شىء أفضل من الاعتدال (٧٤) .

فالمختار عنده من ضروب الكلام الثلاثة هو الضرب الوسط، لأنه مذهب التوسط والاعتدال الذى سلكه البلغاء البارعون فى صناعة الأدب والكتابة ، وقد رسم الطريق الى ذلك وبينه فقال : والطريق الى ذلك انما هو بتنخل الأسماء وتصاريف الأفعال ومصادرها : لأنها متى اعتدلت مخارجها وتبدل اللسان بها ، ولطفت فى ذواتها ، وكثرت فى استعمال الخاصة ، حسن جرسها فى السمع ، وخفت على النفس،ومتى كانت متنافرة المخارج ، ثقيلة على اللسان ، مستكرهة فى ذاتها ، أو غريبة فى الاستعمال ، أبتها الطباع ، ومجتها الأسماع ، ونبت عن التأليف (٧٥) .

ومما سقناه من كلام ابن خلف نرى أن فصاحة اللفظة عنده أن تسلم من هذه العيوب :

١ ــ الوحشية والغرابة .

---

(٧٤) مواد البيان : ١٠٧ .

(٧٥) السابق : ١٠٨ ، ١٠٩ .

قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) :

عرض قدامة فى كتابه « نقد الشعر » لنعوت الجـودة فى اللفظ فذكر أنه لابد أن يكون اللفظ سـمحا ، سهل مخـارج الحـروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة ، مع الخلو عن البشاعة(٥٢) •

وتحدث عن عيوب اللفـظ وهى : أن يكون ملحونا ، وجاريا على غير سبيل الاعراب واللغة ، وأن يركب الشـاعر منه ماليس بمستعمل الا فى الفرط ، ولا يتكلم به الا شاذا ، وذلك هو الوحشى الذى مـدح عمر بن الخطاب زهيرا بمجانبته له ، وتنكبه اياه ، فقال : كان لا يتبع حوشى الكلام » (٥٣) •

وساق قدامة أمثلة للوحشى منها قول أبى حازم العكلى فى مطلع قصيدة له :

تذكر سلمى وأهلاسها   فلم أنس والشوق ذو مطرؤه (٥٤)

والقصيدة تعج بالوحشى المتوعر ، وذكر قدامه كثيرا من أبياتها ، كما ذكر أمثلة أخرى لذلك •

ومن كلام قدامة السابق نرى أنه يجعل اللفظ الجيـد ما خلا من تنافر الحروف ، والحوشية ، ومخالفة سبيل الاعراب واللغة • وهـذه العيوب سبق أن نبه عليها بشر بن المعتمر والجاحظ •

وبين قدامة أن القدماء يجوز لهم استعمال الوحشى ليس من أجل انه حسن•لكن لأن من شعرائهم من كان أعرابيا قد غلبت عليه العجرفة، وللحاجة أيضا الى الاستشهاد بأشعارهم فى الغريب ، ولأن من كان

---

(٥٢) نقد الشعر : ٢٨ •

(٥٣) السابق : ١٧٢ •

(٥٤) نقد الشعر : ١٧٣ • وأهلاسها : تبسمها الخفى • ومطرؤه : من طرأ عليه الأمر اذا جاءه من حيث لا يعلم •

وقد بدأ ابن سنان حديثه عن الفصاحة ببيان معناها اللغوى وهو : الظهور والبيان ، وأورد الشواهد الدالة على ذلك ، ثم تطرق الى الفرق بين الفصاحة والبلاغة فقال : الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون الا وصفا للألفاظ مع المعانى • فلا يقال فى كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وان قيل فيها فصيحة • وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا ، كالذى يقع فيه الاسهاب فى غير موضعه(٧٩) •

فالفصاحة عنده وصف للألفاظ مجردة عن معانيها التركيبية، وتوصف بها الكلمة والكلام ، والبلاغة وصف للألفاظ مع المعانى التركيبية التى يقع فيها التفاضل ، ومن ثم لا تقع الا وصفا للكلام ، ولا تكون وصفا للكلمة المفردة • والكلام البليغ لابد أن يستوفى شروط الفصاحة، ومن ثم لا يكون الكلام البليغ الا فصيحا أما الكلام الفصيح فيمكن أن يكون غير بليغ كالكلام الذى فيه أسهاب وتطويل ، فهو وان كان فصيحا الا أنه غير بليغ ، لعدم مطابقته المقام الذى يتطلبه •

وقد تأثر ابن الأثير والخطيب القزوينى بهذا الفرق الذى ذكره ابن سنان كما سنرى بعد ذلك •

وقد ذكر ابن سنان لفصاحة اللفظة المفردة شروطا ثمانية وفصل الحديث فى كل منها •

الشرط الأول : أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج ••• وعلة هذا أن الحروف التى هي أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ، ولاشك فى أن الألوان المتباينة اذا جمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض

---

(٧٩) سر الفصاحة : ٤٩ ، ٥٠ •

مع السواد أحسن منه مع الصفرة ، لقرب ما بينه وبين الأصفر ، وبعد ما بينه وبين الأسود ، واذا كان هذا موجودا على هذه الصفة ، لا يحسن النزاع فيه ، فالعلة فى حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة كالعلة فى حسن النقوش اذا مزجت من الألوان المتباعدة(٨٠).

والتأليف من الحروف المتباعدة كثير ، وجل كلام العرب عليه ، أما التأليف من الحروف المتقاربة ، فمثاله لفظ « العهخع » ، وللحروف الحلق مزية فى القبح اذا كان التأليف منها فقط ، وأنت تدرك هذا وتستقبحه . كما يقبح عندك بعض الأمزجة من الألوان ، وبعض النغم من الأصوات(٨١) .

وتأليف الحروف ثلاثة أقسام : الأول : تأليف الحروف المتباعدة وهو الأحسن المختار ، والثانى : تضعيف هذا الحرف نفسه ، وهو يلى هذا القسم فى الحسن ، والثالث : تأليف الحروف المتجاورة ، وهو اما قليل فى كلامهم ، أو منبوذ رأسا ، وذلك لصعوبة الكلمات التى تتقارب مخارج حروفها ، وظهور الكلفة حال التلفظ بها ، ومن ثم فلا يكاد يجىء فى كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة ، لحزونة ذلك على ألسنتهم وثقله ، ومن الحروف التى لم يتركب فى كلامهم بعضها مع بعض : الصاد والسين والزاى ، فليس فى كلام العرب مثل : سص ، ولاصس ، ولاسز ، ولازس ، ولأزص ، ولاصز(٨٢) .

نبين أن أول الشروط فى فصاحة الكلمة أن تؤلف من حروف متباعدة المخارج ، لأن تقارب المخارج يؤدى الى الثقل ، وقاس

---

(٨٠) سر الفصاحة : ٥٤ .

(٨١) سر الفصاحة : ٥٥ .

(٨٢) السابق : ٤٨ ، ٤٩ .

تباعد مخارج الحروف وتقاربها على تباين الألوان المجتمعة وتقاربها، وهو فى نظـرى قياس غـير دقيق ، لأن الألوان المتبـاعدة لا يحسن اجتماعها فى كل الأحوال ، وأهل الفن يستحسنون الألوان المتقـاربة المتناسبة ، التى ليس بينها تفاوت كبير ، فهذا التفاوت يقبح فى العين لما يصـاحبه من انتقال مفاجئ يبهرها ، ويقلل التركيز ، فلا تستمتع العـين بالألـوان .

وقد اعترض ابن الأثير على هذا القياس،وقال : اذا كان الخفاجى قاس حاسة السمع على حاسة البصر للتناسب بين الحـواس ، فان القياس يستقيم لو توقف عرفان جودة اللفظة على سماع أصـوات مخارجها ، كما يتوقف فى عرفان حسن الألوان على ابصارها ورؤيتها ، وانما قد يعلم جودة اللفظة ، ويعرف حسن تركيبها من غير أن يسمع لها صوت ، وذلك بالتأمل فى الكلام المكتوب . والعلة التى يمكن ذكرها فى ذلك : أن الفائدة فى الأشياء المركبة ، انما هى اختلاف أجزائهـا ، وتباين مفرداتها ، ليؤثر التركيب عند ذلك شيئا لم يكن ، اما حسنا واما قبحا ، فأما اذا كانت أجـزاؤها مشابهة بعضـها البعض ، فانه لا يكون لتركيبها حينئذ كبير فائدة . وحيث كانت فى الحال فى الأشياء المركبة كذلك ، قسنا عليه تركيب مخارج الحروف ، فمتى كانت الكلمة مركبة من حروف متباعدة المخارج أثر التركيب فيها أثرا حسـنا فى الغالب ، ومتى كانت الكلمة مركبة من حروف متقاربة المخارج جاءت بخـلاف ذلك فى الغالب أيضا(٨٣) .

وقد اعترض «الطوفى» على ابن الأثير فى رده لكلام ابن سنان، وقال انه اما لم يصل الى مغزى كلامه ، أو أنه عانده ليفسـد قوله ويصحح قول نفسه ... وقياس بعض الحـواس على بعض وان لم

---

(٨٣) الجامع الكبير : ٣٨ ، ٣٩ .

يكن لازما ، لكنه مناسب مناسبة قوية ، ومجرد المناسبة كاف فى هـذا العلم . اذ ليس من العقليات القطعية حتى يعتبر فيه اللزوم القاطع. ولا نسلم ادراك جودة اللفظ بدون سماعه ، وانما يدرك جودة معناه ، لأن آلة ادراكه العقل ، فاشتبه عليه أحد الادراكين بالآخر(٨٤) .

ثم بين الطوفى أن توجيه الخفاجى مبنى على قاعدة لطيفة ، وهى أن الحواس الخمس بمنزلة الجواسيس للنفس ، يلقى اليها ما تدركه، وقد علمنا بالطبع أن النفس ترتاح للأخبار المستغربة المتباينة ، وتمل وتمج الكلام المعاد ... ولاشك أن الحروف المتقاربة فى معنى المعادة المتماثلة ، ولهذا وقع الادغام فى المتماثلين ، والمتقـاربين ، فثبت أن السمع والنفس تجافيان متقارب الحروف وتملانه ، كما يملان تكرار الحرف الواحد من المخرج الواحد ، لما فى ذلك من ثقل التلفظ(٨٥) .

وقد سبق ابن جنى الى بيان أن الحرفين اذا تقاربا فى مخرجيهما قبح اجتماعهما ، ولاسـيما حروف الحـلق(٨٦) . وبين أن العـرب يستحسنون تركيب ما تباعدت مخـارجه من الحروف ، نحو الهمـزة والنون ، والحاء والباء مثل : أن ، ونأى ، وحب ، وبح ، ويستقبحون تركيب ما تقارب من الحروف ، وذلك نحو : طس ، وسص ، وطث ، وثط ، ويؤثرون فى الحرفين المتباعدين أن يقربوا أحدهما من صاحبه ، ويدنوه اليه ، وذلك نحو قولهم فى سويق : صـويق ، وفى السـوق : الصوق ... ونحو ذلك مما أدنى فيه الصوتان أحدهما من الآخر(٨٧) .

ويفهم من كلامه أن المستحسن عندهم ما توسطت مخارجه بين القرب والبعد ، فلم تكن شديدة القرب ، ولا شديدة البعد .

---

(٨٤) الاكسير : ٧٣ ، ٧٤ .
(٨٥) السابق : ٧٥ .
(٨٦) سر صناعة الاعراب : ١/٧٥ .
(٨٧) الخصائص : ٢/٢٢٧ .

وقد بين الرماني أن التنافر يرجع الى تقارب مخارج الحروف أو تباعدها بعدا شديدا ، وحكي ذلك عن الخليل بن أحمد ، وذلك لأنه اذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، واذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده الى مكان ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة في ذلك في الاعتدال (٨٨).

واعترض عليه الخفاجي فى ذلك ، لأنه يرى أن قرب المخارج سبب فى التنافر ، لا بعد المخارج ، واستدل على صحة رأيه بوجود كلمات مبنية من حروف شديدة التباعد ، ولا تنافر فيها مثل « ألم » ، فالهمزة من أقصى الحلق ، والميم من الشفتين ، واللام متوسطة بينهما ، وكذلك « أم » و « أو » ، ولو كان بعد المخارج يوجب ثقلا لكانت هذه الكلمات وما أشبهها متنافرة (٨٩) .

وحجة ابن سنان واهية ، ويمكن بواسطتها اسقاط ما ذهب اليه ابن سنان نفسه من أن تقارب المخارج سبب فى التنافر ، اذ توجد كلمات حروفها متقاربة المخارج ولا تنافر فيها ، كما فى « جيش وشجى » فالجيم والياء والشين مخارجها متقاربة ، ويطلق على ثلاثتها « الشجرية » ومع ذلك لا تنافر فى الكلمتين المكونتين منها .

وعلى هذا نرى أن الذوق هو الذى يحكم بالتنافر أو التلاؤم ، وأن كل ما فيه تنافر تكون حروفه متقاربة المخارج أو متباعدة ، وليس كل ما كان قريب المخارج أو متباعدها يكون من المتنافر . والحكم بالتنافر اعتمادا على قرب المخارج أو تباعدها حكم مبنى على الغالب .

الشرط الثانى : أن تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسنا ومزية على غيرها ، وان تساويا فى التأليف من الحروف المتباعدة ، كما أنك

---

(٨٨) النكت : ٥٦ .

(٨٩) سر الفصاحة : ٩١ .

تجد لبعض النغم والألوان حسنا يتصور فى النفس ، ويدرك بالبعد والسمع دون غيره مما هو من جنسه .

ومثاله فى الحروف : « ع ذ ب » فان السامع يجد لقولهم : « العذيب » اسم موضع و «عذيبة» اسم امرأة ، و «عذب» و «عذاب» و « عذبات » مالا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ فى التأليف ، وليس سبب ذلك بعد الحروف فى المخارج فقط ، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد ، ولو قدمت الذال ، أو الباء ، لم تجد الحسن على الصفة الأولى فى تقديم العين على الذال ، لضرب من التأليف فى النغم يفسده التقديم والتأخير .

وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصنا ، أو فننا ، أحسن من تسميته عسلوجا ، وأن أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط فى السمع (٩٠) .

فالشرط الثانى عند ابن سنان مرجعه الى السمع ، الذى يجد قبولا لبعض الألفاظ دون بعض ، وإن تساوت فى كونها مؤلفة من حروف متباعدة المخارج .

ويرى الخفاجى أن استحسان السمع أو استهجانه لبعض الألفاظ ، صفة لا تعرف لها علة ولا سبب ، سوى أن اللفظة جاءت مؤلفة على نمط خاص ، يلقى لدى السمع استحسانا أو استهجانا . وهذا مقيس على النغم والألوان ، حيث يفضل المزاج بعضها على الآخر الذى هو من جنسه .

ومثل ابن سنان لما يكره فى السمع بقول أبى الطيب :

مبارك الاسم أغر اللقب كريم الجرشى شريف النسب

---

(٩٠) سر الفصاحة : ٥٥ والشوحط : شجر يتخذ منه القسى .

ففى لفظ « الجرشى » أى النفس ، ثقل يكرهه السمع ، وينبو عنه ، ومثله ما فى قول زهير :

تقى نقى لم يكثر غنيمة بنهكة ذى قربى ولا بحقلد

فالحقلد — أى البخيل الضيق — كلمة توفى على قبح « الجرشى » وتزيد عليها (٩١) .

ويرى محمد بن على الجرجانى أن المزية فى نحو : عذب ، وغصن ، وفوح ، معللة بعلتين :

الأولى : أن كل واحد مركب أعدل تركيب ، وهو الثلاثى ساكن الأوسط ، حرف للابتداء به ، وحرف للاعراب والوقف عليه ، وحرف للفصل بينهما ، ولا يحتاج الفاصل الى حركة .

والثانية : أن كل واحد مركب من حروف متباعدة فى المخرج ، مرتبة فيه على سمت واحد ، وحركة واحدة للآلة ، فان العين من أسفل المخارج وهو الحلق، والذال من أوسطها والباء من أعلاها ، وكذلك الغصن ، وأما فوح : فترتيب حروفه فى المخرج بالعكس ، فان الفاء من أعلى المخارج ، والواو من أوسطها ، والحاء من أسفلها ، ولو قدم الذال على العين ى عذب ، وقيل : ذعب ، احتاجت الآلة الى حركتين : حركة من أوسط المخارج الى أسفلها ، وحركة من أسفلها الى أعلاها ، ولذلك تثقل ، ولا يكون له ذلك القبول فى السمع ، وكذلك القول فى غصن وفوح (٩٢) .

وهذه تأملات صوتية دقيقة تجلى مزايا الكلمات ، وأسرار حسنها والبلاغيون فى مسيس الحاجة اليها .

---

(٩١) السابق : ٥٦ .

(٩٢) الاشارات والتنبيهات : ١٠ .

وفى نظرنا أن استحسان السمع أو استهجانه للفظ يرجع الى صفات فى اللفظ تؤدى الى ذلك ، ككون اللفظ متلائما أو متنافرا ، مألوفا أو وحشيا ، ونحو ذلك • ومن ثم فجعل استحسان السمع للفظ من شروط الفصاحة لا محل له مع وجود الشروط الأخرى •

الشرط الثالث : أن تكون الكلمة غير متوعرة ولا وحشية ، وقد نسب هذا القول الى الجاحظ • ومثل للوحشية بأمثلة كثيرة منها قول أبى تمام :

لقد طلعت فى وجه مصر بوجهه　　　بلا طائر سعد ولا طائر كهل

فان كهلا ههنا من غريب اللغة ، وقد روى أن الأصمعى لم يعرف هذه الكلمة ، وقيل انها بمعنى الضخم ، وكهل لفظة ليست بقبيحة التأليف لكنها وحشية غريبة لا يعرفها مثل الأصمعى •

ومنها ما روى عن علقمة النحوى من قوله : ما لكم تتكأكئون على تكأكؤكم على ذى جنة ؟ افرنقعوا عنى • فان تتكأكئون وافرنقعوا وحشى ، وقد جمع العلتين قبح التأليف الذى يمجه السمع والتوعر(٩٣) والمقصود بقبح التأليف ما عرف عند البلاغيين المتأخرين بتنافر الحروف وقد احترز عنه ابن سنان بالشرط الأول •

ومنها قول العجاج :

وفاحما ومرسنا مسرجا

فان المرسن الأنف ، والمسرج لا يعرف ، حتى خرج له أنه أراد بالمسرج المحدد ، من قولهم للسيوف : السريجيات ، منسوبة الى قين يعرف بسريج ، وهذا القصد على ما تراه وحشى غريب (٩٤) •

(٩٣) سر الفصاحة ٥٦ ، ٥٧ •
(٩٤) السابق : ٦٠ •

وضرب الخفاجي أمثلة كثيرة مما وقع فيه الشعراء من استعمال الحوشي والمتوعر ، مؤكدا على أن الفصاحة هي الظهور والبيان ، وليست الغموض والخفاء (٩٥) .

وختم حديثه في هذا الشرط ببيان أن البدوي صاحب الطبع في هذا الفن أعذر من القروي المتكلف ، لأن القروي لا يعرف الوحشي الا بعد البحث والطلب ، وتجشم الغناء في التصفح ، وعلى قدر ذلك يجب لومه والانكار عليه(٩٦) . وقد سبق الجاحظ الى بيان ذلك فقال : لا ينبغي أن يكون اللفظ غريبا وحشيا الا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقي رطانة السوقي (٩٧) .

ومما يدخل في الغرابة لأنه يسبب غموض الكلام على المسامع ، الأسماء المشتركة كالصدى الذي هو العطش والطائر والصوت الحادث في بعض الأجسام ، فمثل هذا لا يحسن الا اذا كان في الكلام دليل على المقصود ، مثل قول أبي الطيب :

ودع كل صوت دون صوتي فانني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

فان الصدى ههنا لا يشكل بالصدى الذي هو العطش ، ولا يسبق ذلك الى فهم أحد من السامعين ، فأما ان كان ذلك في موضع يشكل فليس بموافق للفصاحة (٩٨) .

الشرط الرابع : أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية ، ونسب هذا الى الجاحظ ، وذكر أمثلة للعامي الساقط منها قول أبي تمام :

---

(٩٥) السابق : ٦١ .
(٩٦) السابق : ٦٣ .
(٩٧) البيان والتبيين : ١/١٤٤ .
(٩٨) سر الفصاحة : ٢١٥ .

جايت والموت مبد حر صفحته ... وقد تفرعن فى أفعاله الأجل

فان « تفرعن » مشتق من اسم فرعون وهو من ألفاظ العامة ، وعادتهم أن يقولوا تفرعن فلان اذا وصفوه بالجبرية .

ومنها قول ابن نباته :

أقام قوام الدين زيغ قنـــاتة ... وأنضج كى الجرح وهو فطير

فتأمل لفظة « فطير » تجدها عامية مبتــذلة ، وان كانت وقعت هنا موقعا لو كانت فصيحة هجنها ، وأذهب طلاوتها(٩٩) .

وساق الخفاجى أمثلة كثيرة للعامى المبتــذل ، واحتـــد فى لوم الشعراء على استعماله مع أنه لا يتعــذر عليهم تبــديله بالفصيح ، ويرى أن الأولى طرح البيت كله ، بل والقصــيدة كلهــا ان لم يكن الشاعر قادرا على تبديل كلمة فى بيت من شعره(١٠٠) .

ونلحظ أن الخفاجى نسب هذا الشرط والذى قبله الى الجاحظ فقد نبه على ذلك ومن كلامه " وكما لا ينبغى أن يكون اللفــظ عاميــا وساقطا سوقيا ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا (١٠١) ... وهذا مما تأثر فيه الجاحظ ببشر بن المعتمر فى صحيفته حيث حذر من التوعر ، فان التوعر يسلم الى التعقيد الذين يستهلك المعانى ويشين الألفاظ ، وحث البليغ على أن يكسو معانيه الألفاظ الواســطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء (١٠٢) .

---

(٩٩) سر الفصاحة : ٦٣ ، ٦٤ .
(١٠٠) السابق : ٦٥ .
(١٠١) البيان والتبيين ١/١٤٤ .
(١٠٢) البيان والتبيين : ١/١٣٥ ، ١٣٦ .

الشرط الخامس : أن تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح غير شاذذ ، ويدخل فى هذا كل ما ينكره أهل اللغة ، ويرده علماء النحو ، من التصرف الفاسد فى الكلمة(١٠٣) .

وذكر ابن سنان أشكالا متعددة لهذا الفساد هى :

(أ) أن تكون اللفظة غير عربية ، كما فى قول أبى الشيص :

وجناح مقصوص تحيف ريشه ريب الزمان تحيف المقراض

فقد أنكروا عليه كلمة « المقراض » وقالوا ليست من كلام العرب (١٠٤) .

(ب) أن يعبر بالكلمة عن غير ما وضعت له فى عرف اللغة كما فى قول أبى تمام :

حلت محل البكر من معطى وقد زفت من المعطى زفاف الأيم

موضع الأيم مكان الثيب وليس الأمر كذلك فى كلام العرب ، انما الأيم التى لا زوج لها ، بكرا كانت أو ثيبا . قال الله عز وجل : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم » وليس مراده تعالى نكاح الثيبات من النساء دون الأبكار ، وانما يريد النساء اللواتى لا أزواج لهن (١٠٥) .

(ج) أن يكون فى الكلمة حذف ، كما قال رؤبة :

قواطنا مكة من ورق الحما

يريد : الحمام . وكما قال النجاشى :

فلست بآتيه ولا استطيعه ولاك إسقنى إن كان ماؤك ذا فضل

(١٠٣،١٠٤،١٠٥) سر الفصاحة ٦٧ ، ٦٨ .

يريد : ولكن اسقنى (١٠٦) •

(د) أن يكون فى الكلمة زيادة ، وذلك كأن تشبع الحركة فيها فتصير حرفا كما فى قول ابن هرمة :

وأنت على الغواية حين ترمى   وعن عيب الرجال بمنتزاح

يريد : بمنتزح • ، وكما فى قول الفرزدق :

تنفى يداها الحصا فى كل هاجرة   نفى الدراهيم تنقاد الصياريف

يريد : الدراهم والصيارف (١٠٧) •

(هـ) أن تورد الكلمة على الوجه الشاذ القليل • كما فى قول البحترى

متحيرين فباهت متعجب   مما يرى أو ناظر متأمل

فقوله : « باهت » لغة رديئة شاذة ، والعربى المستعمل : بهت الرجل يبهت فهو مبهوت • ، وكما فى قول المتنبى .

واذا الفتى طرح الكلام معرضا   فى مجلس أخذ الكلام اللذعنا

فان « اللذ » فى « الذى » لغة شاذة قليلة (١٠٨) •

(و) أن تكون الكلمة على خلاف الصيغة الصحيحة فى الجمع أو غيره ، كما فى قول الطرماح :

وأكره أن يعيب على قومى   هجاى الأرذلين ذوى الحنات

فجمع « احنة » على غير الجمع الصحيح ، لأنها احنة واحن ، ولا يقال : حنات (١٠٩) •

---

(١٠٦) السابق : ٦٩ •

(١٠٧،١٠٨) السابق : ٧٠ ، ٧١ •

(١٠٩،١١٠،١١١) سر الفصاحة : ٧٢ •

(ز) أن يبدل حرف من حروف الكلمة بغيره كما فى قول الشاعر :

لها أشارير من لحم متمرة   من الثعالى ووخز من أرانيها

يريد : من الثعالب وأرانبها (١١٠) •

(ح) اظهار التضعيف فى الكلمة ، كما فى قول قعنب بن ضمرة :

مهلا أعاذل قد جربت من خلقى   انى أجود لأقوام وان ضننوا(١١١)

يريد : ضنوا ، ففك الادغام •

فهذه الألوان من المخالفات تؤدى الى عدم فصاحة الكلمة ، لأنها تكون غير جارية على العرف العربى الصحيح •

وهناك ألوان أخرى من المخالفات لا تؤثر فى فصاحة الكلمة تأثيرا كبيرا ، ولكن ابن سنان يؤثر صيانة الكلمة عنها ، لأن الفصاحة تنبىء عن اختيار الكلمة وحسنها وطلاوتها ، وهذه الأمور صفات نقص فيها ، فيجب اطراحها (١١٢) •

ومن هذه الأمور : صرف مالا ينصرف ، ومنع الصرف مما ينصرف ، وقصر الممدود ، ومد المقصور ، وحذف الاعراب للضرورة ، وتأنيث المذكر على بعض التأويل ، وتذكير المؤنث • وما جرى مجرى ذلك مما يعده اللغويون من الضرورات الشعرية (١١٣) •

وبين الخفاجى أن هذه الضرورات يختلف قبحها فى بعض المواضع دون بعض ، على قدر التأويل فيه وحكمه (١١٤) • وهذا يعنى أن الضرورة اذا اشتدت الحاجة اليها ، وكان لها مخرج وتأويل قلت درجة قبحها ، وكانت مستساغة ، أما اذا جاءت على خلاف ذلك كانت قبيحة •

---

(١١٢) السابق : ٧٤ •
(١١٣) ينظر السابق : ٧٣ •
(١١٤) سر الفصاحة : ٧٤ •

وقال السبكي : أطلق الخفاجي أن صرف المتصرف وعكسه في الضرورة مخل بالفصاحة (١١٥) ، وهذا غير دقيق ، فكلام الخفاجي واضح في أن هذه الضرورات لا تؤثر كثيرا في فصاحة الكلمة ، وإن كان يؤثر صيانة الكلام عنها •

ولا شك في أن الخفاجي استفاد في هذا الشرط من أبي هلال العسكري الذي سبق الى اعتباره في فصاحة الكلمة ، وضرب أمثلة لبعض الضرورات ، ومنها ما ذكره الخفاجي في أمثلته (١١٦) •

الشرط السادس : ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره ، فاذا أوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت ، وان كملت فيها الصفات السابقة • ومثال هذا قول عروة بن الورد :

قلت لقوم في الكنيف تروحوا عشية بتنا عند ماوان رزح

والكنيف أصله الساتر ، غير أنه استعمل في الآبار التي تستر الحدث وتسهر بها • ومن ثم فاستعمال هذا اللفظ مكروه ، وإن كان لا يقصد به هذا المعنى (١١٧) •

ومنه قول الشريف الرضي :

سلام على الأطلال لا عن جنابة ولكن يأسا حين لم يبق مطمع

فان « جنابة » هنا لفظة غير مرضية للوجه المذكور ، وان كانت لولا ذلك فصيحة مختارة لخلوها من العيوب غيره (١١٨) •

ومنه قول الشريف الرضي رحمه الله :

---

(١١٥) عروس الأفراح : ٨٩/١ •
(١١٦) الصناعتين : ١٥٦ ، ١٥٧ •
(١١٧) سر الفصاحة : ٧٥ •
(١١٨) السابق : ٧٧ •

اعزز على بأن أراك وقد خلت   من جانبيك مقاعد العواد

فايراد مقاعد فى هذا البيت صحيح ، الا أنه موافق لما يكره ذكره فى مثل هذا الشأن لا سيما وقد أضافه الى من يحتمل اضافته اليهم وهم العواد ، ولو تفرد كان الأمر فيه سهلا ، فأما اضافته الى ما ذكره ففيها قبح لا خفاء فيه(١١٩) .

ويعذر الخفاجى المتقدمين كعروة بن الورد ، وعمرو بن معد يكرب ، وغيرهما ، فى استعمال بعض هذه الألفاظ ، لجواز أن يكون الاستعمال المكروه للكلمة حدث بعدهم (١٢٠) .

ومما يمكن ادخاله فى هذا الشرط وان كان لا يلاحظ الا فى التأليف : ألا يعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة فى الذم ، ولا فى الذم بالألفاظ المعروفة للمدح ، بل يستعمل فى جميع الأغراض الألفاظ اللائقة بذلك الغرض .

ومن هنا عيب قول أبى نواس :

جاد بالأموال حتى   حسبوه الناس حمقا

وقول أبى تمام :

مازال يهذى بالمكارم دائبا   حتى ظننا أنه محموم

لأن الحمق ، ويهذى ، ومحموم ، من الألفاظ التى تستعمل فى الذم ، وليست من ألفاظ المدح (١٢١) .

الشرط السابع : أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف ، فانها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة .

---

(١١٩) السابق : ٧٥ ، ٧٦ .
(١٢٠) السابق : ٧٥ ، ٧٧ .
(١٢١) سر الفصاحة : ١٥٣ ، ١٥٤ .

ومن هذا قول أبى تمام :

فلأذربيجان اختيال بعدما
كانت معرس عبرة ونكال
سمجت ونبهنا على استسماجها
ما حولها من نضرة وجمال

فقوله « فلأذربيجان » كلمة رديئة لطولها وكثرة حروفها ، وهى غير عربية ، ولكن هذا وجه قبحها ، وكذلك قوله « استسماجها » ردىء لكثرة الحروف ، وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد فى الألفاظ الى الشاذ النادر .

ومن هذا قول المتنبى :

ان الكريم بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

« فسويداواتها » كلمة طويلة جدا ، ولذلك لا أختارها (١٢٢) .

الشرط الثامن : أن تكون الكلمة مصغرة فى موضع عبر بها فيه عن شىء لطيف أو خفى أو قليل أو ما يجرى مجرى ذلك ، فان صغرت فى موضع التعظيم ونحوه كانت غير فصيحة . وعلى هذا استحسن ابن سنان التصغير فى قول الشريف الرضى :

يولع الطل بردينا وقد نسمت رويحة الفجر بين الضال والسلم

لأن الريح المقصودة هنا النسيم وهو ضعيف ، ومن ثم حسنت العبارة عنه بالتصغير ، وكان للكلمة طلاوة وعذوبة .

كما استقبح التصغير فى قول ابى الطيب :

أحاد أم سداس فى أحاد لييلتنا المنوطة بالتنادى

---

(١٢٢) سر الفصاحة : ٧٨ .

لا تصغير « لبيلتنا » تصغير تعظيم • وهو ما يعده مخلا بالفصاحة (١٢٣) •

واستند ابن سنان فى استقباح تصغير التعظيم لرأى المبرد الذى أنكر هذا اللون من التصغير وقال ان التصغير فى كلام العرب لم يدخل الا لنفى التعظيم • واذا استعمل التصغير للتحقير والتعظيم معا فقد زالت الفائدة به ، ولم يكن دليلا على واحد منهما ، بل يرجع الى المقصود باللفظة ، ويلتمس بيان ذلك من جهة المعنى دون اللفظ ، فليس للتصغير تأثير •

والخفاجى مغال فى امكان تصغير التعظيم واعتباره مخلا بالفصاحة ، لوجوده فى الشعر العربى ، واجازة أكثر اللغويين له ، والاعتداد به فى معانى التصغير •

وبتفصيل الشروط الثمانية السابقة ، ينتهى حديث الخفاجى عن فصاحة اللفظة المفردة ، وحديثه يعد طور الكمال فى بحث هذا الموضوع ، وقد جذب من جاءوا بعده فداروا فى فلكه ماخصين له أو شارحين أو معقبين ، ولم يزيدوا شيئا أساسيا فى هذا الموضوع كما سترى فى الفصل التالى •

وفى ختام هذا الفصل ينبغى أن نشير الى أن الامام عبد القاهر الجرجانى ت ٤٧١ هـ لم يفصل الكلام فى مقاييس فصاحة الكلمة على الوجه الذى قصدناه فى هذا البحث ، ورأيه أن الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة ، ألفاظ متشابهة ، ولا معنى لها غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ، ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين ، وآنق وأعجب ، وأحق بأن تستولى على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب (١٢٤) •••

---

(١٢٣) سر الفصاحة : ٨١،٧٩ •

(١٢٤) دلائل الاعجاز : ٣١ •

ومن ثم فالفصاحة عنده لا تظهر فى الألفاظ المجردة ، ولا توصف بها الكلمات المفردة ، فلا تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة الا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها (١٢٥) •

وكل ما يمكن أن يقال فى تفاضل الكلمتين المفردتين ، أن هـذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية ، أو أن تكون حـروف هـذه أخف وامتزاجها أحسن ، ومما يكد اللسان أبعد (١٢٦) •

وفى هـذه الفقرة الأخيرة اشـارة مقتضبة الى ما تتفاضل به الكلمات المجردة ، وقد تجاوزها الامام عبد القاهر منطلقا الى تفصيل القول فى تفاضل الكلمات من حيث موقعهـا فى النظم ، وموضعها فى التأليف ، مما لا مجال له فى هذا البحث •

---

(١٢٥) السابق : ٣٢ •

(١٢٦) السابق : ٣١ •

الفصل الثانى

فصاحة الكلمة عند المتأخرين

فتن المتأخرون بعد ابن سنان الخفاجى بمقاييسه الثمانية فى فصاحة الكلمة ، وداروا فى فلكها ، فمنهم من لخصها ، ومنهم من شرحها ، ومنهم من تعقبه فى بعضها مضيفا بعض الشروط التى يسهل ارجاعها اليها عند التدقيق .

وجاء الخطيب القزوينى فضبط كلام السابقين ولخصه فى ثلاثة شروط ، صارت هى العمدة عند البلاغيين فى هذا البحث الى يومنا هذا .

وسنتناول فى هذا الفصل مقاييس البلاغيين المتأخرين فى فصاحة الكلمة ، بدءا من البغدادى ، وانتهاء بالخطيب القزوينى وشراح تلخيصه ، وسنؤخر الحديث عن الخطيب الى آخر هذا الفصل على الرغم من تقدمه على بعض من سنتحدث عنهم ، ليكون حديثنا عن فصاحة الكلمة عنده خاتمة المطاف فى بحثنا ، كما كان تناوله لهذا الموضوع خاتمة المطاف فيه .

محمد البغدادى (ت ٥١٧هـ) :

تكلم البغدادى عن الألفاظ وعيوبها ، وما يجب على البليغ تجاهها ، وذلك فى كتابه « قانون البلاغة » . فمن عيوب الألفاظ عنده : أن تكون ملحونة جارية على غير الاعراب والسبيل المبنى عليه الكلام ، وان تكون بشعة مستوخمة ، وحشية متروكة الاستعمال ثقيلة فى السمع(١) .

---

(١) قانون البلاغة : ٣٣ ، ٣٤ .

والناس يخرجون عن طريق البلاغة من وجهين :

أحدهما : أن تكون الألفـــاظ مستكرهة مستوخمة غير مرصـــونة ولا منتظمـــة .

وثانيهما : أن تكون كثيرة يغنى عنها بعضها ، ويمكن أن يعبر عن المعنى الدان عليها بأقل منها (٢) .

والذى يجب على البليغ فى استعمال الألفـــاظ : أن تكون ســـمحة سهلة ، لهـــا حلاوة وطـــلاوة ، وعليهـــا رونق الفصـــاحة مع الخلو من البشاعة ، ويتجنب ما كان متوإعرا وحشيا ، أو ساقطا عاميا(٣) .

وهكذا تناول البغدادى الموضوع بايجاز يناسب كتابه الذى جعله قانونا للابلاغة ، ومن سمات القانون الايجاز والاحكام .

والبعدادى يشترك مع قـــدامة بن جعفر ، وابن خلف الـــكاتب فى كثير من العبارات مما يدل على تأثره الكبير بهما (٤) .

الســـكاكى (ت ٦٢٦هـ) :

تناول السكاكى موضوع الفصاحة فى كتابه « مفتاح العلوم » وذلك فى نهاية حديثه عن علم البيان ، حيث انطلق من الحـــديث عن البلاغة والفصاحة الى الحديث عن الوجوه التى يصـــار اليها لقصـــد تحسين الكلام(٥) وهى ما عرفت بعلم البديع .

---

(٢) السابق : ٢٣ .

(٣) السابق : ٢٨ .

(٤) ينظر قانون البلاغة : ٢٣ ، ٣٣ ، ويقارن بنقد الشعر : ٢٨ ، ومواد البيان ٩٣ .

(٥) مفتاح العلوم : ٤٢٣ .

وقسم الفصاحة قسمين ، وعرف كل قسم منهما فقال : وأما الفصاحة فهى قسمان : راجع الى المعنى : وهو خلوص الكلام عن التعقيد ، وراجع الى اللفظ : وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية ، وعلامة ذلك ، أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور ، واستعمالهم لها أكثر ، لا مما أحدثها المولدون ولا مما أخطأت فيه العامة ، وأن تكون أجرى على قوانين اللغة ، وأن تكون سليمة عن التنافر (٦) •

ومن تأملنا فى كلام السكاكى عن الفصاحة اللفظية نجد أنه يضع شرطا عاما لفصاحة الكلمة هو : أن تكون الكلمة عربية أصلية • ويتحقق هذا الشرط العام بشروط فرعية هى :

١ ــ دوران الكلمة على ألسنة العرب الفصحاء •
٢ ــ ألا تكون مما أحدثه المولدون •
٣ ــ ألا تكون مما أخطأت فيه العامة •
٤ ــ أن تكون جارية على قوانين اللغة •
٥ ــ أن تكون سليمة من التنافر •

وهذه الشروط الخمسة لفصاحة الكلمة تدخل ضمن شروط ابن سنان الخفاجى :

فدوران الكلمة على ألسنة الفصحاء ، يعنى أنها لا تكون غريبة وحشية متوعرة كما ذكر ابن سنان •

وكون الكلمة ليست مما أحدثه المولدون ، ولا مما أخطأت فيه العامة يعنى أنها لا تكون ساقطة ولا عامية ولا مبتذلة كما قرر الخفاجى •

---

(٦) مفتاح العلوم : ٤١٦ •

وكونها جارية على قوانين اللغة هو ما اشترطه ابن سنان من كونها جارية على العرف العربى الصحيح غير شاذة .

وسلامة الكلمة من التنافر يتناول ما اشترطه ابن سنان من كون الكلمه مؤلفة من حروف متباعدة المخارج ، وكونها حسنة فى السمع وكونها معتدلة غير كثيرة الحروف ، فهذه الشروط الثلاثة تجعل الكلمة سليمة من التنافر الذى يختلف شدة وخفة .

ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) :

تحدث ابن الأثير فى كتابيه « المثل السائر » و « الجامع الكبير » عن الفصاحة والبلاغة ، وأفاض فى الحديث عن فصاحة الكلمة فى دراسة موسعة تأثر فيها بابن سنان الخفاجى ، بل تعد فى الحقيقة شرحا لما ذكره ابن سنان ، وتعقيبا على بعض آرائه .

وفرق ابن الأثير بين الفصاحة والبلاغة بما لم يخرج عن كلام الخفاجى ، فبين أن الفصاحة تخص اللفظ دون المعنى ، والبلاغة تشمل الألفاظ والمعانى حال التركيب ، واللفظة الواحدة لا توصف بالبلاغة ، وتوصف بالفصاحة ، والبلاغة أخص من الفصاحة ، فكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا (٧) .

وهذا عين ما ذكره الخفاجى كما أسلفنا .

الكلمة ومرجع الحكم عليها .

وبين ابن الأثير أن مؤلف الكلام يحتاج الى ثلاثة أشياء :

أولها : اختيار الألفاظ المفردة .

وثانيها : نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها .

---

(٧) المثل السائر : ١/٩٢ ، ٩٤ .

وثالثها : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه •

والألفاظ المفردة حكمها حكم اللآلىء المبددة ، وعلى ناظمها أن يتخيرها وينتقيها قبل النظم (٨) •

ويرى ابن الأثير أن السمع أساس فى الحكم على الألفاظ بالحسن أو القبح ؛ لأن الألفاظ أصوات تتألف من مخارج الحروف ، فما استلذه السمع منها فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة ، والقبيح غير موصوف بها • ومثال ذلك : أن ألفاظ « المزنة » و « الديمة » و « البعاق » من صفات المطر ، ولا خلاف فى أن « المزنة » و « الديمة » حسنة يستلذها السمع ، وأن « البعاق » قبيحة يكرهها السمع (٩) •

كما يرى أن التعويل على حكم السمع ، يغنى عما ذكره علماء البيان فى كتبهم من خصائص وهيئات للألفاظ ، لأنه اذا كان اللفظ لذيذا فى السمع كان حسنا ؛ واذا كان حسنا دخلت تلك الخصائص والهيئات فى ضمن حسنه (١٠) •

شروط يعترض عليها :

وبناء على اعتداد ابن الأثير بحكم السمع ، لم يوافق ابن سنان فى بعض الشروط التى ذكرها لفصاحة الكلمة ، وهى : تباعد مخارج الحروف ، وكون الكلمة جارية على العرف العربى غير شاذة ، وكونها مصغرة فى موضع يعبر به عن شىء لطيف أو خفى أو ما جرى مجراه ، وكونها معتدلة غير كثيرة الحروف(١١) •

---

(٨) السابق : ١٦٣/١ •
(٩) السابق : ٩١/١ ، ١٦٩ •
(١٠) السابق : ١٧٠/١ •
(١١) المثل السائر : ١٧٢/١ ، ٢٠٤ •

وبين وجه اعتراضــه على هذه الشروط الأربعة حسبما نوضـــحه فيمــا يلى :

١ ــ تباعد مخارج حروف الكلمة :

ذكر ابن الأثير أن تباعد المخارج لا يصح جعله شرطا فى اختيـــار الألفـــــاظ لأسباب :

١ ــ أن معظم ألفاظ اللغة العــربية دائر عــلى ذلك فلا حــاجة للنص عليـــه •

٢ ــ أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ • وهل هى متباعدة أو متقاربة ، لطال الخطب فى ذلك وعسر ولما كان الشاعر ينظم قصيدا ، ولا الكاتب ينشىء كتـــابا الا فى مدة طويلة تمضى عليها أيام وليال ذوات عدد كبير •

٣ ــ اذا سئلت عن لفظة من الألفاظ وقيل لك : ما تقول فى هذه اللفظة أحسنة هى أم قبيحة ؟ فانك تفتى على الفور بحسنها أو قبحها، ولو كنت لا تفتى بذلك حتى تقول للسائل : اصبر الى أن أعتبر مخارج حروفها،ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبح لصح لابن سنان ما ذهب اليه من جعل بعد المخارج شرطا فى اختيار الألفاظ •

٤ ــ أن الأصل الذى غاب عن ابن سنان فى ذلك هو : أن الحسن من الألفاظ يكون متباعد المخارج ، فحسن الألفاظ اذن ليس معلوما من تباعد المخارج،وانما علم قبل العلم بتباعدها•وهذا راجع الى حاسة السمع فاذا استحسنت لفظا أو استقبحته وجد ما تستحسنه متباعد المخارج، وما تستقبحه متقارب المخارج ، واستحسانها واستقباحها انمــا هو قبـــل اعتبار المخارج ، لا بعده •

٥ ــ أن حسن الألفاظ المتباعدة المخارج قاعدة قد شذ عنها شواذ كثيرة • لأنه قد يجيء فى المتقارب المخارج ما هو حسن رائق • فالجيم والشين والياء مخارج متقاربة ، وهى من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وتسمى ثلاثتها « الشجرية » واذا تركب منها شيء من الألفاظ جاء حسنا رائقا • فان قيل « جيش » كانت لفظة محمودة ، وان قيل « شجى » كانت أيضا لفظة محمودة •

كما قد يجيء فى المتباعد المخارج شيء قبيح أيضا ، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح ، اذ هما ضدان لا يجتمعان فمن ذلك أن يقال : « ملع » اذا عدا ، فالميم من الشفة ، والعين من حروف الحلق ، واللام من وسط اللسان ، وكل ذلك متباعد ، ومع هذا فان هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق السليم ، ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة (١٢) •

ويلاحظ ابن الأثير نكتة غريبة فى هذه اللفظة ، فاننا اذا عكسنا حروفها صارت « علم » وعند ذلك تكون حسنة لا مزيد على حسنها • ولاندرى كيف صار القبح حسنا ؟ ! مع أنه لم يتغير شيء من مخارجها • ولو كانت مخارج الحروف معتبرة فى الحسن والقبح لما تغير الحكم فى « ملع » و « علم » •

ويورد ابن الأثير ما يمكن أن يقال تفسيرا لهذه الظاهرة ، ويرد عليه ، فيقول : فان قيل : أن اخراج الحروف من الحلق الى الشفة أيسر من ادخالها من الشفة الى الحلق ، فان ذلك انحدار ، وهذا صعود ، والانحدار أسهل !

فالجواب عن ذلك : أن هذا لو كان مستمرا لصح ما ذهبت اليه لكنا نرى من الألفاظ ما اذا عكسنا حروفه من الشفة الى الحلق ،

---

(١٢) السابق : ١/١٧٢ ــ ١٧٤ •

أى من وسط اللسان أو من آخره الى الحلق لا يتغير كقولنا « غلب » فان الغين من حروف الحلق • واللام من وسط اللسان ، والباء من الشفة ، وإذا عكسنا ذلك صار « بلغ » وكلاهما حسن مليح •• وكذلك تقول ، « عقر » و « رقع » و « عرف » و «فرع» و « حلف »و«فلح» وغير ذلك كثير ••• ولو كان ما ذكرته مطردا لكنا اذا عكسنا هذه الألفاظ صار حسنها قبحا ، وليس الأمر كذلك(١٣) •

لهذه الأسباب التى فصلناها لم يوافق ابن الأثير على ما ذهب اليه ابن سنان من جعل تباعد المخارج شرطا فى فصاحة الكلمة وأرجع الحكم بحسنها أو قبحها الى حاسة السمع ، فهى الحاكمة بحسن ما يحسن من الألفاظ ، وقبح ما يقبح منها •

ومن السهل الرد على حجج ابن الأثير :

فقوله : ان معظم ألفاظ اللغة دائر على ذلك • فهذا ما لا يغيب عن ابن سنان وقد أشار اليه فى تقسيم تأليف الحروف وفى كلامه عن الشرط الأول وبيناه فى حديثنا عن هذا الشرط عند ابن سنان ، وكون معظم ألفاظ اللغة دائرا على ذلك ، لا يتناقض مع النص عليه •

وقوله لو اعتبر القائل مخارج الحروف لعسر عليه ، ولم ينشىء ما يريده الا فى مدة طويلة ، فهذا لم يقصده ابن سنان ، والألفاظ الحسنة هى أكثر اللغة ، ويقع عليها القائل دون صعوبة ، ولا حاجة به الى التأمل فى الكلمات ومخارجها كما هو معلوم وواقع •

وقوله ان الحكم على الكلمة بالحسن أو القبح لا يتوقف على معرفة المخارج ، فهذا صحيح لأن ثقل الكلمة أو خفتها شىء يدركه الذوق ، والسمع ، ولكن عند السؤال عن سبب الثقل والتنافر فسيكون

---

(١٣) المثل السائر : ١٧٤/١ ، ١٧٥ •

الجواب مخارج الحروف وصفاتها ، وقد بين ابن الأثير نفسه أن الثقل فى « مستشزرات » ناشىء من الشين التى قبلها تاء وبعدها زاى ، فجعل الثقل راجعا الى اجتماع الحروف المتنافرة(١٤) ٠

وقوله ان حسن الألفاظ يعلم قبل العلم بتباعد مخارجها ، قول ضعيف ، لأن ابن سنان لم يجعل علة التنافر هى العلم بتباعد المخارج، بل نفس التباعد ، وذلك مدرك لكل سامع(١٥) ٠

وقوله ان حسن المتباعد وقبح المتقارب قاعدة قد شذ عنها شواذ كثيرة ، لا يهدم ما ذكره ابن سنان لأنه لم يقل ان كل متباعد فى المخارج حسن ، وكل متقارب فى المخارج قبيح ، انما هذه القاعدة مبنية على الأغلب والأعم ، فالمدعى انما هو الغلبة كما هو شأن العلامات لا اللزوم(١٦) ٠

وقد بنى ابن الأثير نفسه شرطا على الأمر الغالب ، حيث جعل من شروط فصاحة الكلمة ألا تكون مبنية من حركات ثقيلة ، وعندما وجد شذوذا عن ذلك يتمثل فى وجود بعض الكلمات التى يتوالى فيها الضم ولا يحدث كراهة ولا ثقلا ، قال أن هذا الشاذ لا يبطل الشرط المقرر ، لأنه قائم على الغالب ، والشاذ لا ينقض الأصل المقيس عليه(١٧) فكيف يحاسب ابن سنان على ما شذ عن شرطه ؟ !

على أن ابن الأثير لم يعترض على هذا الشرط فى «الجامع الكبير». وقال فى تفسيره : ولسنا نعنى بذلك أن المتقارب المخارج لا يكون حسنا ولا جيدا ، بل نعنى بذلك أن الغالب على المتباعد المخارج من

---

(١٤) المثل السائر : ٢٠٥/١ ، ٢٠٦ ٠
(١٥) عروس الأفراح : ٨٢/١ ٠
(١٦) عروس الأفراح : ٨١/١ ٠
(١٧) المثل السائر : ٢٠٧/١ ، ٢٠٨ ٠

الألفـاظ الجودة والحسن ، والغـالب على المتقـارب المخارج الرداءة والقبـح(١٨) .

وأرى أن السمع والذوق يحكمان بالثقل أو عدمه ، ولم يغفـل الخفاجي أثر السمع بل أفرد له الشرط الثانى من شروطه ، ولكن يبقى بعد حكم السمع والذوق سبب الحسن أو القبح مجهولا ، ولا تفسير لهذا السبب الا حروف الكلمة المتنافرة فى مخارجها وصفاتها .

٣ ـ جريان اللفظة على العرف العربى :

وهذا هو الشرط الثانى الذى لم يوافق عليه ابن الأثير ، وحجته فى ذلك ، أن عدم جريان الكلمة على العرف العربى الصحيح لا يوجب لها حسنا ولا قبحا ، وانما يقدح فى معرفـة مستعملها بما ينقلـه من الألفاظ ، فكيف يعد ذلك من جملة الأوصاف الحسنة ؟ ! (١٩) .

وفى الجامع الكبير يقول عن هذا الشرط:وليس هذا معتبرا فىجودة اللفظة ولا فى رداءتها،لأن شذوذ اللفظة لا يوجب لها حسنا ولا قبحا، وانما المعنى بقولهم : ان هذه الكلمة شاذة ، أى أنها لم تنقل الا عن واحد فقط ، فلا يوثـق بها ، ولا يركن اليها ، سـواء كانت حسـنة أو قبيحـة(٢٠) .

وفى رد ابن الأثير على ابن سنان مغالطة ظاهرة ، لأن استعمال ما لا يجرى على العرف العربى الصـحيح اذا كان يقدح فى معـرفة مسـتعمله ، فانه من باب أولى يقدح فى فصـاحة الكلمة ، ويسـببب قبحها ، والا فلماذا يعاب مستعملها اذا كانت هى غير قبيحة ؟ !

٣ ـ تصغير اللفظة فى التعبير عن الشىء اللطيف أو الخفي أو ما

(١٨) الجامع الكبير : ٣٥ .
(١٩) المثل السائر : ١٧٥/١ .
(٢٠) الجامع الكبير : ٣٤ .

جرى مجرى ذلك دون الشيء العظيم ونحوه : وهذا الشرط لم يوافق عليه ابن الأثير ، لأنه لا حاجة الى ذكره ، فان المعنى يسوق اليـه ، وليست معانى التصغير من الأشياء الغامضة التى يفتقر الى التنبيه عليها ، فانها مدونة فى كتب النحو ، ومع هذا فان صاحب هذه الصناعة مخير فى ذلك ، ان شاء أن يورده بلفظ التصغير ، وان شاء بمعناه ، كقول بعضهم :

لو كان يخفى على الرحمن خافية　　من خلقه خفيت عنه بنو لبد

فهل يمكن هذا الشاعر أن يصغر من هؤلاء القوم ، ويحقر من شأنهم بألفاظ التصغير ، ويجيء هكذا ، كما جاء بيته هذا ؟ فالوصية بهذا الشرط اذن ملغاة لا حاجة اليها(٢١) .

ويبدو من رد ابن الأثير أنه لم يتأمل كلام الخفاجى فى هذا الشرط الى آخره ، لأنه حكى الجزء الأول منه . ولم يعرض للجزء الثانى . فابن سنان يريد أن يقول : ان تصغير الكلمة بقصد التقليل ونحو ذلك لا يخل بفصاحتها لأنه تصغير فى موضعه ، أما تصغير الكلمة بقصد التعظيم ونحوه فهذا يخل بفصاحتها ، لأنه تصغير فى غير موضعه ، وجار على خلاف الأصل ، وهو غير مشهور فى حاجة الى التنبيه عليه ، أما الجزء الأول فهو واضح ، ويجرى على الأصل فى الاستعمال .

على أن ابن الأثير لم يعترض على هذا الشرط فى «الجامع الكبير» وأطنب فى شرح معاني التصغير ، وبيان أبنيته الصرفية(٢٢) .

---

(٢١) المثل السائر : ١/١٧٥ .
(٢٢) الجامع الكبير : ٥٤ ـ ٥٦ .

٤ ـ تأليف الكلمة من حروف قليلة :

وقد اعترض ابن الأثير على هذا الشرط ، وذكر مثالا مثل به ابن سنان ، وتعقبه فى حكمه عليه ، وهو قول المتنبى :

ان الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

فقال : قال ابن سنان : ان لفظة «سويداواتها طويلة،فلهذا قبحت: وليس كما ذكره ، فان قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها ، وانما لأنها فى نفسها قبيحة ، وقد كانت وهى مفردة حسنة ، فلما جمعت قبحت ، لا بسبب الطول(٢٣) •

واستدل ابن الأثير على أن الطول لا يوجب قبح اللفظة بما ورد فى القرآن الكريم من ألفاظ طوال وهى مع ذلك حسنة كقوله تعالى : « فسيكفيكهم الله »(٢٤) •

فان هذه اللفظة تسعة أحرف ، وكقوله تعالى : « ليستخلفنهم فى الأرض »(٢٥) فان هذه اللفظة عشرة أحرف ، وكلتاهما حسنة رائقة ، ولو كان الطول مما يوجب قبحا لقبحت هاتان اللفظتان وليس كذلك •

كما أنه لو أسقط من لفظة « سويداواتها » الهاء والألف وهما عوض عن الاضافة لبقى منها ثمانية أحرف ، ومع هذا فانها قبيحة ، ولفظة « ليستخلفنهم » عشرة أحرف ، وهى أطول منها بحرفين ، ومع هذا فانها حسنة رائقة(٢٦) •

وبين ابن الأثير أن الأمر فى ذلك يرجع الى تأليف الحروف بعضها مع بعض ، والأصل فى هذا الباب : أن الأصول من الألفاظ لا تحسن الا فى الثلاثى وفى بعض الرباعى كقولنا « عذب » و « عسجد »

---

(٢٣) المثل السائر : ٢٠٤/١ •

(٢٤) البقرة : ١٣٧ •

(٢٥) النور : ٥٥ •

(٢٦) المثل السائر ٢٠٤/١ ، ٢٠٥ •

أما الخماسى من الأصول فانه قبيح ، ولا يكاد يوجد منه شىء حسن ، كقولنا « جحمرش » و « صهصلق » وما جرى مجراهما • وكان ينبغى بناء على ما ذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين ، واللفظتان الواردتان فى القرآن قبيحتين ، لأن تلك تسعة أحرف وعشرة، وهاتان خمسة وخمسة ، ولكن الأمر بالضد مما ذكره كما نرى(٢٧) •

ويخلص ابن الأثير من ذلك الى أن المطلوب أن تجتنب الألفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها سواء كانت طويلة أو قصيرة ، اذ لا عبرة بالطول والقصر انما العبرة بتأليف الكلمة من حروف ثقيلة أو خفيفة على اللسان • ومثال ذلك قول امرىء القيس :

غدائره مستشزرات الى العلا تضل المدارى فى مثنى ومرسل

فلفظة « مستشزرات » مما يقبح استعمالها ، لأنها تثقل على اللسان ويشق النطق بها وان لم تكن طويلة ، لأننا لو قلنا «مستنكرات» أو « مستفرات » على وزن « مستشزرات » لما كان فى هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة •

كما أننا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا « مستشزر » لكانت أيضا ثقيلة ، وسبب ذلك : أن الشين قبلها تاء وبعدها زاى ، فتثقل النطق بها ، والا فلو جعلنا عوضا من الزاى راء ، ومن الراء فاء فقلنا « مستشرف » لزال ذلك الثقل(٢٨) •

وبهذا وضع ابن الأثير شرطا بديلا عن شرط ابن سنان الذى اعترض عليه : ألا وهو : أن تكون الألفاظ مؤلفة من حروف يسهل النطق بها •

---

(٢٧) السابق ٢٠٥/١ •
(٢٨) المثل السائر ٢٠٥/١ ، ٢٠٦ •

وموقف ابن الأثير من هذا الشرط فى «الجامع الكبير» يختلف عما فى « المثل السائر » بل يتناقض معه ، حيث لم يعترض على كلام الخفاجى فى « سويداواتها » وأيد كلامه قائلا : أن الكلمة اذا ركبت من حروف قليلة خفت على النطق لقصرها ، وسهل التعبير بها على اللسان لسرعة فراغه منها ، واذا تركبت من حروف كثيرة كان فى النطق بها كلفة على الناطق ، وذلك لتطاولها وامتداد الصوت بها(٢٩) .

وأورد على كلامه اعتراضا ورد عليه ، فقال : فان قيل ان هذا الذى أنكرته من طول الألفاظ وذكرته هنا قد ورد فى القرآن الكريم ما يماثله ويشابهه كما فى قوله تعالى : « ليستخلفنهم فى الأرض » وقوله تعالى : « فسيكفيكهم الله » وأمثال ذلك ، فلو كان هذا منكرا فى التأليف مكروها فى الكلام لما ورد فى القرآن المجيد .

فقلنا فى الجواب عن ذلك : ليس هذا الذى قد جاء فى القرآن الكريم مثل هذا الذى أوردناه نحن فى كتابنا من كلمات طويلة وأنكرناها على قائلها ، لأن قوله « ليستخلفنهم » ثلاث كلمات جمعت فصارت كلمة واحدة صورة لا معنى ، وكذلك « فسيكفيكهم » ولا نجد فى القرآن الكريم لفظة واحدة مثل سويداواتها فى الطول ، لأنها ليست ثلاث كلمات وقد جمعت كلمة واحدة كما أريناك ، وانما هى كلمة تدل على معنى الجمعية لا غير ، وفى آخرها الهاء والألف لاضافتها الى المؤنث فاعرف ذلك(٣٠) .

وهذا الذى ذكره فى « الجامع » رد قوى على ما ذكره فى «المثل السائر » معترضا على الخفاجى ، وان كان من المرجح أن « الجامع الكبير » ألف قبل « المثل السائر »(٣١) .

---

(٢٩) الجامع الكبير : ٥٧ .

(٣٠) الجامع الكبير : ٥٨ ، ٥٩ .

(٣١) الجامع الكبير . مقدمة التحقيق : ٣٩ .

شروط وافق عليها :

ووافق ابن الأثير على ثلاثة من شروط الخفاجي في فصاحة الكلمة وهي :

١ ــ ألا تكون الكلمة وحشية •

٢ ــ ألا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة •

٣ ــ ألا تكون الكلمة مشتركة بين معنيين أحدهما يكره ذكره •

وتحدث عن كل شرط منها حديثا مفصلا كما سنعرضه فيما يأتي :

١ ــ كون الكلمة غير وحشية :

بين ابن الأثير أن الوحشي من الألفاظ هو الغريب الذي يقل استعماله ويندر تداوله وهو منسوب الى اسم الوحش الذي يسكن القفار وليس بأنيس ، وكذلك الألفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال• وليس من شرط الوحش أن يكون مستقبحا ، بل أن يكون نافرا لا يألف الانس ، وتارة يكون حسنا ، وتارة يكون قبيحا (٣٢) •

وعلى هذا فليس من شرط الوحشي أن يكون مستقبحا كما يرى بعض المنتمين الى صناعة النظم والنثر بل هو على قسمين : غريب حسن ، وغريب قبيح •

والغريب الحسن يختلف باختلاف النسب والاضافات ، والغريب القبيح يستقبحه كل الناس ، ولا يختلف في استقباحه عربي باد ولا قروي متحضر (٣٣) •

ويستنتج ابن الأثير من هذه القسمة أن الألفاظ على ثلاثة أقسام:

---

(٣٢) المثل السائر : ١/١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٠ وينظر الجامع الكبير ٤١
(٣٣) السابق : ١/١٧٥ ، ١٧٦ •

قسمان حسنان وقسم قبيح •

فالقسمان الدسنان :

أحدهما : ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم الى زمننا هذا ولا يطلق عليــه أنه وحشى • وهو أحسن الألفاظ لأنــه مألوف متداول ، ولم يكن كذلك الا لمكان حســنه بين أرباب الخطابــة والشــعر •

والآخر ما تداول استعماله الأول دون الآخر •ويختلف فى استعماله بالنسبة الى الزمن وأهله ، فلا يعاب استعماله عند العرب لأنه لم يكن عندهم وحشيا • وهو عندنا وحشى • وهذا القسم هو ما أطلق عليه الغريب الحسن •

وقد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معــدودة وهى ما يطلق عليها « غريب القرآن » وكذلك تضمن الحديث النبوى منه شيئا وهو ما يطلق عليه غريب الحديث (٣٤) •

والقسم القبيــح هو الوحشى الغليظ المتوعر ، واللفظ فى هــذا القسم يجمع عيبين :

أحدهما : غرابة الاستعمال :

والآخر : ثقله على السمع واللسان •

واللفظ الذى بهذه الصفة لا مزيد على فظاظته وغلاظته ، وليس وراءه فى القبح درجة أخرى •

ومن أمثلة ذلك قول تأبط شرا :

يظل بموماة ويمسى بغيرها جحيشا ويعرورى ظهور المسالك

---

(٣٤) المثل السائر ١٧٦/١ •

فان لفظة « جحيش » من الألفاظ المنكرة القبيحة ، وهى بمعنى « فريد » وفريد لفظة حسنة رائعة ولو وضعت موضع « جحيش » لما اختل شيء من الوزن .

فتأبط شرا ملوم من وجهين :

أحدهما : أنه استعمل القبيح .

والآخر : أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنه .

ومما هو أقبح منها ما ورد لأبى تمام فى قوله :

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعثت   عشواء تالية غبسا دهاريسا

فلفظة « اطلخم » من الألفاظ المنكرة التى جمعت الوصفين القبيحين ؛ فهى غريبة ، وغليظة فى السمع كريهة على الذوق وكذلك لفظة « دهاريس » أيضا (٣٥) .

وابن الأثير مبالغ فى الحكم على « اطلخم » حين جعلها أقبح من « جحيش » التى يظهر فيها التوعر بجانب التنافر ، بينما لفظة « اطلخم » تنطق بالشدة والقوة فى اضطراب الأمر ؛ ومن ثم لا يرى فيها بعض الباحثين مخالفة للفصيح ، لأن ثقلها وتداخل حروفها يحكيان الشدة والاختلاط حين ينبهم الأمر ، وتتبعث النوائب العشواء (٣٦) .

استعمال الغريب الحسن :

ويرى ابن الأثير أن استعمال الغريب الحسن ليس مقبولا من كافة المتكلمين على اطلاقهم ، بل يكون مقبولا من طائفة دون طائفة أخرى حسب زمان الوجود ومكانه .

---

(٣٥) السابق : ١/١٨٠ ، ١٨١ .
(٣٦) خصائص التراكيب : ٣٤ .

فالعرب لا تلام على استعمال الغريب الحسن ، وانما تلام على استعمال الغريب القبيح ، وأما الحضرى فانه يلام على استعمال القسمين معا وهو فى أحدهما أشد ملامة من الآخر (٣٧) .

كما أن الغريب الحسن لا يسوغ استعماله فى أجناس الكلام على السواء ، بل يسوغ استعماله فى الشعر ، ولا يسوغ فى الخطب والمكاتبات .

من ذلك قول الفرزدق :

ولولا حياء زدت رأسك شجة
اذا سبرت ظلت جوانبها تغلى
شرنبثة شمطاء من ير ما بها
تشبه ولو بين الخماسى والطفل (٣٨)

فقوله : « شرنبثة » من الألفاظ الغريبة التى يسوغ استعمالها فى الشعر ، وهى ههنا غير مستكرهة ، الا أنها لو وردت فى كلام منثور من كتاب أو خطبه لعيبت على مستعملها .

ومن ذلك قول البحترى :

مشمخر تعلو له شرفات رفعت فى رءوس رضوى وقدس (٣٩)

فان لفظة « مشمخر » لا يحسن استعمالها فى الخطب والمكاتبات ، ولابأس بها ههنا فى الشعر (٤٠) .

---

(٣٧) السابق : ١٨٢/١ .

(٣٨،٣٩) شرنبثة : غليظة قبيحة منكرة . وغلام خماسى : اذا كان طوله خمسة أشبار .

المشمخر : الجبل العالى . ورضوى وقدس جبلان . حاشية المثل السائر ١٨٣/١ .

(٤٠) المثل السائر : ١٨٣/١ .

وبناء على هذا يرى ابن الأثير أن كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنثور من الألفاظ يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم يسوغ استعماله فى الكلام المنثور (٤١) .

الجزل والرقيق :

ويفرق ابن الأثير بين الجزل والرقيق من جانب ، والوحشى والركيك من جانب آخر درءا للالتباس بينهما .

فالجزل من الألفاظ ما كان متينا قويا على عذوبته فى الفم ولذاذته فى السمع ، وهذا بخلاف الوحشى المتوعر الذى يثقل على السمع واللسان ، ويستعمل الجزل من الألفاظ فى وصف مواقف الحروب ، وفى قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك .

والرقيق هو اللطيف ، الرقيق الحاشية ، الناعم الملمس ، وهو بخلاف الركيك والسفساف والردىء . . ويستعمل الرقيق من الألفاظ فى وصف الأشواق ، وذكر أيام البعاد ، وفى استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف ، وأشباه ذلك (٤٢) .

ويضرب ابن الأثير أمثلة للجزل والرقيق من القرآن الكريم والشعر والنثر . ويشير الى أن قوارع القرآن الكريم عند ذكر الحساب ، والعذاب والميزان والصراط ، والموت ، ومفارقة الدنيا ، وما جرى هذا المجرى من قبيل الجزل من ذلك قوله تعالى : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع

(٤١) السابق : ١/١٨٥ .
(٤٢) السابق : ١/١٨٥ ، ١٨٦ .

الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ... » الخ الآيات !

فهذه الآيات المضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله . وذكر النار والجنة ما فيها لفظة الا وهى سهلة مستعذبة على ما بها من الجزالة والقوة . كما يشير الى أن ألفاظ القرآن عند ذكر الرحمة والرأفه والمغفرة والملاطفات فى خطاب الأنبياء ، وخطاب المنيبين والتائبين من من العباد وما جرى هذا المجرى ، من قبيل الرقيق البعيد عن الضعف والركاكة . من ذلك قوله تعالى : « والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ... » الى آخر السورة (٤٣) .

فألفاظ هذه السورة تذوب رقة ولطفا ، وما فيها من لفظة ضعيفة أو باردة .

وهكذا ترى سبيل القرآن الكريم فى كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة (٤٤) .

وعلى هذا السبيل ورد أكثر كلام العرب فى القديم شعرا ونثرا ، ومما ساقه من أمثلة للجزل قصيدة السموأل :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

ومنها :

وأيامنا مشهورة فى عدونا لها غرر مشهورة وحجول
وأسيافنا فى كل غرب ومشرق بها من قراع الدارعين فلول
معودة ألا تسل نصالها فتغمد حتى يستباح قتيل

---

(٤٣) سورة الزمر : الآيات : ٦٩ ـ ٧٤ .

(٤٤) المثل السائر : ١/١٨٦ ، ١٨٧ .

ويعلق عليها بقوله : فاذا نظرنا الى ما تضمنته من الجزالة ، خلناها زبرا من الحديد وهى مع ذلك سهلة ، مستعذبة ، غير فظة ولا غليظة •

ومن أمثلة الرقيق قول عروة بن أذينة :

ان التى زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبى : ما كان أكثرها لنا وأقلها
واذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير الى الفؤاد فسلها(٤٥)

وينتهى ابن الأثير من ضرب الأمثلة الى المقارنة بين الألفاظ والأشخاص ، فيقول : والألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة ، تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج (٤٦) •

٢ ــ ألا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة :

ويبين ابن الأثير أن هذا ينقسم قسمين :

القسم الأول : ما كان من الألفاظ دالا على معنى وضع له فى أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالا على معنى آخر •

وهو ضربان :

الأول : ما يكره ذكره • كقول أبى الطيب :

أذاق الغوانى حسنه ما أذاقننى وعف فجازاهن عنى بالصرم

---

(٤٥) السابق : ١٨٩ ، ١٩٠ •
(٤٦) السابق : ١/١٩٥ •

فان معنى لفظة « الصرم » فى وضع اللغة هو القطع • فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره • فأبدلوا السين صادا (٤٧) ؛ ومن أجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة وما جرى مجراها • وهذا الضرب لا يعاب البدوى على استعماله كما يعاب المحتضر ، لأن البدوى لم تتغير الألفاظ فى زمنه ، ولا تصرفت العامة فيها كما تصرفت فى زمن المحتضرة من الشعراء •

وهذا الضرب داخل عند الخفاجى فى الكلام المعبر به عن أمر آخر يكره ذكره ، ولفظة « الصرم » مما مثل به ، ولكنه أوردها فى قول أبى صخر الهذلى :

قد كان صرم فى الممات لنا   فعجلت قبل الموت بالصرم

ويبين الخفاجى أن مثل هذا لا يعاب به البدوى ؛ لجواز أن يكون هذا الاستعمال المعيب حادثا بعده •

وقد نقل ابن الأثير كلام الخفاجى الا أنه جعل هذا من ضروب المبتذل ، فكثر الأقسام دون فرق ظاهر بينها ، ولو أدخل هذا ضمن ما عبر به عن أمر مكروه كما فعل الخفاجى لكان أفضل •

والثانى : ما ليس بمستقبح ولا مستكره وذلك كتسميتهم الانسان « ظريفا » اذا كان دمث الأخلاق ، حسن الصورة أو اللباس أو ما هذا سبيله ، والظرف فى أصل اللغة مختص بالنطق فقط (٤٨) •

والقسم الثانى : ما لم تغيره العامة عن وضعه ، وانما أنكر استعماله لأنه مبتذل بينهم ، لا لأنه مستقبح ، ولا لأنه مخالفه

---

(٤٧) السرم بالسين طرف المعى المستقيم عند المخرج ، كلمة مولدة، والعامة يقولونه بالصاد « صرم » • ينظر الصحاح مادة : سرم •

(٤٨) المثل السائر ١/١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ •

لما وضع له • ولا يقصد بهذا القسم عند ابن الأثير ما كثر تداوله بين العامة ، ولكن ما كان من الألفاظ سخيفا ضعيفا سواء تداولتها العامة أو الخاصة كما فى قول أبى الطيب :

وملمومة سيفية ربعية يصيح الحصى فيها صياح اللقالق

فان لفظة « اللقالق » مبتذلة بين العامة جدا (٤٩) ••

ومن ذلك لفظة « الشاطر » و « الشاطرة » و « الشطار » كما فى قول أبى نواس :

وملحة بالعذل تحسب أنني بالجهل أترك صحبة الشطار (٥٠)

٣ ـ ألا تكون مشتركة بين معنيين أحدهما يكره ذكره :

وبين ابن الأثير أن الكلمة اذا وردت وهى غير مقصود بها ذلك المعنى المكروه قبحت ، وذلك اذا كانت مهملة بغير قرينة تميز معناها عن القبح • فاذا جاءت معها قرينة فانها لا تكون معيبة كقوله تعالى : « فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » (٥١) ، فلفظة « التعزير » مشتركة تطلق على التعظيم والاكرام ، وعلى الضرب الذى هو دون الحد ، وقد جاءت فى الآية ومعها قرينة ، فخصصت معناها بالحسن ، وميزته عن القبح ، ولو وردت مهملة بغير قرينة ، وأريد بها المعنى الحسن ، لسبق الى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح •

مثال ذلك لو قال قائل : لقيت فلانا فعزرته ، لسبق الى الفهم أنه ضربه وأهانه ، ولو قال : لقيت فلانا فأكرمته وعزرته لزال ذلك اللبس •

---

(٤٩) السابق : ١/١٩٨ ، ١٩٩ •
(٥٠) السابق : ١/٢٠١ •
(٥١) الأعراف : ١٥٧ •

وقد تأتى اللفظة فى كلام فتكون سببا فى قبحه ، ولو لم تجىء معه لما كان مستقبحا ، من ذلك قول الشريف الرضى :

أعزز على بأن أراك وقد خلا عن جانبيك مقاعد العواد

وساق ابن الأثير كلام ابن سنان عن هذا البيت وهو : أن ايراد مقاعد فى هذا البيت صحيح ، الا أنه موافق لما يكره ذكره فى مثل هذا الشأن ، لاسيما وقد أضافه الى من يحتمل اضافته اليهم وهم العواد ، ولو انفرد كان الأمر فيه سهلا ، فأما اضافته الى ما ذكر ، ففيها قبح لاخفاء فيه (٥٢) .

وعلق ابن الأثير على هذا فقال : هذه اللفظة المعيبة فى الشعر قد جاءت فى القرآن الكريم ، فجاءت حسنة مرضية ، وهى قوله تعالى : « واذا غدوت من أهلك تبوء المؤمنين مقاعد للقتال » (٥٣) ، وقوله تعالى : « وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع » (٥٤) ، ألا ترى أنها فى هاتين الآيتين غير مضافة الى من تقبح اضافته اليه ، كما جاءت فى الشعر ؛ ولو قال الشاعر بدلا من « مقاعد العواد » «مقاعد الزيارة» أو ما جرى مجراه ، لذهب ذلك القبح ، وزالت تلك الهجنة ، ولهذا جاءت هذه اللفظة فى الآيتين على ما تراه من الحسن ، وجاءت على ما تراه من القبح فى قول الشريف الرضى (٥٥) .

وابن الأثير متفق مع ابن سنان فى نقد البيت ، حيث بين أن لفظة « مقاعد » معيبة هنا لما توحى به من معنى قبيح ألمح اليه اضافة « مقاعد » الى « العواد » ، ولو أضيف الى لفظ آخر لا يوهم معنى

---

(٥٢) المثل السائر : ٢٠٣/١ ، وسر الفصاحة : ٧٥ .
(٥٣) آل عمران : ١٢١ .
(٥٤) الجن : ٩ .
(٥٥) المثل السائر : ٢٠٣/١ وينظر الجامع الكبير : ٥٣ ، ٥٤ .

قبيحا لزال العيب ، ومن ثم حسنت هذه اللفظة فى القرآن الكريم لعدم اضافتها الى ما يوحى بمعنى قبيح ، وبذلك فصل ابن الأثير المسألة ووضحها بدقة •

ومثل ابن الأثير لما ورد مهملا بغير قرينة فجاء معيبا بقول أبى تمام :

أعطيت لى دية القتيل وليس لى   عقل ولا حق عليك قديم

فقوله : « ليس لى عقل » يظن أنه من « عقل الشىء » اذا علمه ، ولو قال : « ليس لى عليك عقل » لزال اللبس ، فهذا كان محتاجا الى قرينة تخصصه ضرورة (٥٦) •

شروط جديدة :

وأتى ابن الأثير بشرطين لم يردا فى شروط ابن سنان وهما :

١ ــ ألا تكون الكلمة مؤلفة من حروف يثقل النطق بها •

٢ ــ ألا تكون الكلمة مبنية من حركات ثقيلة •

وهذان الشرطان مرتبطان بتأليف الكلمة ، والشرط الأول منهما اختاره ابن الأثير بديلا عن شرط ابن سنان الذى يرى فيه أن تكون الكلمة معتدلة الحروف • حيث بين ابن الأثير أنه لا اعتبار بطول اللفظة وقصرها ، وانما المدار على تأليفها من حروف سهلة النطق غير ثقيلة على اللسان ، وقد فصلنا القول فى هذا فيما سبق (٥٧) •

والشرط الثانى : وهو كون الكلمة مبنية من حركات خفيفة ليخف النطق بها وقد ذكر ابن الأثير أن هذا الشرط من ابتكاره ، ولم يقل

---

(٥٦) السابق : ٢٠٣/١ ، ٢٠٤ •
(٥٧) ينظر المثل السائر : ٢٠٥/١ •

به أحد قبله (٥٨) • علما بأن ابن جنى أشار الى مثل هـذا وبين أن العرب يختارون أخف الحركات ، ويعملون على تخفيف الحركة الثقيلة ، ومن طرقهم فى ذلك : استثقالهم الحركة التى هى أقل من الحرف حتى أفضوا فى ذلك الى أن ضعفوك واختلسوها،ثم تجاوزوا ذلك الى ان انتهكوا حرمتها فحذفوها ، ثم ميلوا بين الحركات فأنحوا على الضمة والكسرة لثقلهما ، وأجمعوا — تركوا — الفتحة فى غالب الأمر لخفتها (٥٩) •

بين فيه ابن الأثير أن بعض الحركات ثقيلة كالضمة والكسرة ، وبعضها خفيفة كالفتحة ، واذا توالت حركتان خفيفتان فى كلمة واحدة لم تستثقل ، بخلاف الحركات الثقيلة ، فانه اذا توالت منها حركتان فى كلمة واحدة استثقلت (٦٠) •

ولاثبات أثر الحركات فى خفة الكلمة وثقلها ضرب ابن الأثير مثالا بلفظة مؤلفة من ثلاثة أحرف هى : « ج ز ع » فاذا جعلنا الجيم مفتوحة أو مكسورة ، كان ذلك أحسن من أن لو جعلناها مضمومة،وكذلك اذا فتحنا الجيم والزاى كان ذلك أحسن من ضمهما • واختلاف درجة حسن الكلمة هنا ليس سببه مخارج حروفها ، بل سببه حركاتها ، لأن مخارج الحروف واحدة فى جميع الحالات والاختلاف واقع فى الحركات ، فعلمنا أن حسنها وقبحها حادث عن اختلاف تأليف حركاتها (٦١) •

ويلحظ ابن الأثير وجود شذوذ عن هذه القاعدة ، فقد يتوالى الضم فى بعض الألفاظ ولا يحدث كراهة ولا يوجد ثقلا ، كما فى قوله

---

(٥٨) الجامع الكبير : ٣٤ •

(٥٩) الخصائص : ١/٧٥ ، ٧٨ •

(٦٠) المثل السائر ٢٠٦/١ •

(٦١،٦٣) السابق : ٢٠٧/١ •

تعالى : « فتماروا بالنذر » وقوله تعالى : « ان المجرمين فى ضلال وسعر » وقوله تعالى : « وكل شىء فعلوه فى الزبر » (٦٢) فحركة الضم فى ألفاظ « النذر وسعر والزبر » متوالية وليس بها من ثقل ولا كراهة (٦٣) ...

ورد على هذا الملاحظ بأنه لا ينقض الشرط الذى قرره ، لأن الغالب أن يكون توالى حركة الضم مستثقلا ، فاذا شذ عن ذلك شىء يسير لا ينقض الأصل المقيس عليه (٦٤) .

وبهذا يختتم ابن الأثير حديثه عن فصاحة الكلمة ، ومن دراستنا له نرى أن شروط فصاحة الكلمة عنده هى :

١ ــ ألا تكون الكلمة وحشية .

٢ ــ ألا تكون مبتذلة .

٣ ــ ألا تكون مشتركة بين معنيين أحدهما يكره ذكره .

٤ ــ ألا تكون مؤلفة من حروف يثقل النطق بها .

٥ ــ ألا تكون مبنية من حركات ثقيلة .

كما نرى أنه اعتمد على ابن سنان فى كثير مما قاله ، وأن النقد الذى وجهه الى بعض شروطه حججه واهية ، والرد عليها سهل ميسور،

وقد تناقض كلامه فى بعض هذه الشروط بين كتابيه « الجامع وبعد هذا لا يمكن التقليل من شأن دراسة ابن الأثير لفصاحة الكلمة ، فقد جاءت دراسة مفصلة الجوانب ، قائمة على التحليل والتعليل مدعمة بالأمثلة والشواهد الكثيرة ، مما جعلها مصدرا لكثير من البلاغيين والنقاد من بعده .

---

(٦٢) القمر : ٣٦ ، ٤٧ ، ٥٢ .

(٦٤) المثل السائر ٢٠٨/١ .

الكبير » و« المثل السائر » حيث وافق عليها وأيدها فى كتابه الأول ، واعترض عليها فى كتابه الثانى •

كمال الدين البحرانى « ت ٦٧٩ هـ » :

تحدث الشيخ كمال الدين ميثم ابن على البحرانى فى كتابه الموجز « أصول البلاغة » عن الفصاحة والبلاغة • وبين شروط الحسن فى الكلمة المفردة وهى (٦٥) :

١ ـ توسطها فى قلة الحروف وكثرتها • وأعذب الكلمات الثلاثية ، لاشتمالها على المبدأ والوسط والنهاية ، فان الحرف الواحد لا يفيد ، والتى من الحرفين ليست فى غاية العذوبة ، والرباعية والخماسية ظاهرتا الثقل •

٢ ـ الاعتدال فى حركاتها ، وأعدلها حركتان وساكن ، فان أعوز فثلاث حركات ، وأما توالى أربع حركات ففى غاية الثقل ، والخمس بالأولى ، ولذلك لا يحتملها الشعر •

٣ ـ أن تكون عربية غير مولدة ، ولا صادرة عن خطأ العامة •

٤ ـ أن تكون جارية على مقاييس كلام العرب •

٥ ـ ألا تكون غريبة وحشية •

وبهذا الكلام الموجز حدد البحرانى شروط فصاحة المفرد ، وهى شروط تحدث عنها من سبقه من البلاغيين •

حازم القرطاجنى « ت ٦٨٤ هـ » :

لا نستطيع وضع تصور كامل لنظرة حازم الى الكلمة وفصاحتها ، وذلك نضياع القسم الأول من كتابه « منهاج البلغاء وسراج الأدباء »

(٦٥) أصول البلاغة : ٤٣ ، ٤٤ •

والراجح أن هذا كان من بين موضوعاته فمن اشارات حازم الى بعض موضوعات هذا القسم ، ومن نقول السبكى والزركشى عنه ، استنتج محقق الكتاب أن هذا القسم يتناول القول وأجزاءه ، والأداء وطرقه ، والأثر الذى يحصل للسامعين عن صدور الكلام (٦٦) •

ومن اشاراته حازم الى موضوعات هذا القسم قوله : وقد تقدم الكلام فيما تكون عليه الألفاظ فى أنفسها ، وبالنظر الى هيآتها ودلالتها • وكيفية مواقع تلك الهيئات بدلالتها من النفوس (٦٧) •

وقوله فى جهات حسن الكلام : وتلك الجهات هى اختيار المواد اللفظية أولا من جهة ما تحسن فى ملافظ حروفها ، وانتظامها ، وصيغها ، ومقاديرها ، واجتناب ما يفتح فى ذلك • وقد تقدم (٦٨) •

فهذان النصان يوضحان أن الحديث عن الألفاظ وما يتصل بفصاحتها من موضوعات القسم المفقود من الكتاب •

ومن ثم فاننا سنذكر ما يخص الكلمة مما هو موجود فيما بقى من كتابه ، ومما نقله عنه السبكى فى « عروس الأفراح » •

الكلمة وانتقاؤها :

أشار حازم الى أهمية الألفاظ ووجوب اختيارها وانتقائها ، فهى التى تدل على الصور الذهنية ، وتبرزها الى حيز الوجود ، ومن ثم يكون النظر فى صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللفظ الدال على الصور الذهنية فى نفسه ، ومن جهة ما يكون عليه بالنسبة الى موقعه فى النفوس من جهة هيئته ودلالته ، ومن جهة ما تكون عليه تلك الصور الذهنية فى أنفسها (٦٩) •••

---

(٦٦) منهاج البلغاء « المدخل » : ٩٤ •
(٦٧) منهاج البلغاء : ١٧ •
(٦٨) السابق : ٢٢٢ •
(٦٩) السابق : ١٧ ، ١٩ •

والألفاظ فى التأليف ، بمنزلة الأصباغ فى الصورة ، فاذا كانت الأصباغ جيدة،حسنة التأليف،متناسبة الأوضاع،حسنت الصورة وسرت العين برؤيتها ، أما اذا كانت الأصباغ رديئة ، متنافرة الأوضاع ، قبحت الصورة ، ونبت عنها العين ، ولم تتمتع برؤيتها ، وان كان تخطيطها صحيحا ، فكذلك الألفاظ الرديئة ، والتأليف المتنافر ، وان وقعت بها المحاكاة الصحيحة ، الا أن السمع يتأذى بمرور تلك الألفاظ الرديئة القبيحة التأليف عليه ، ويشغل النفس تأذى السمع عن التأثير بمقتضى المحاكاة والتخييل ؛ ولذلك كانت الحاجة فى هذه الصناعة الى اختيار اللفظ ، وأحكام التأليف أكيدة جدا (٧٠) "

وبهذا أكد حازم على اختيار الألفاظ وانتقائها لتدل على المعانى الذهنية أحسن دلالة •

التنافر :

أكد حازم على حسن التأليف ، وتلاؤم الكلام ، وفى سبيل ذلك ينبغى أن تأتلف حروف الكلمة مع بعضها ، وتأتلف الكلمة مع الكلمة التى تلاصقها ، فقال : والتلاؤم يقع فى الكلام على أنحاء : منها أن تكون حروف الكلام بالنظر الى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها ، وائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة تلاصقها منتظمه فى حروف مختارة ، متباعدة المخارج ، مترتبة الترتيب الذى يقع فيه خفة وتشاكل ما ، ومنها ألا تتفاوت الكلم المؤتلفة فى مقدار الاستعمال ، فتكون الواحدة فى نهاية الابتذال ، والأخرى فى نهاية الحوشية وقلة الاستعمال(٧١) •

---

(٧٠) منهاج البلغاء : ١٢٩

(٧١) منهاج البلغاء : ٢٢٢ •

ونلمح فى هذا النص تأثره بابن سنان الخفاجى ، حيث يرى أن الكلمة ينبغى أن تؤلف من حروف مختارة متباعدة المخارج ، مرتبة ترتيبا فيه خفة وتشاكل ، وبذلك تخلو الكلمة عن التنافر •

الغـــرابة :

يرى حازم أن الكلمة ينبغي أن تكون واضحة الدلالة ، خالية من الغرابة ونحوها ، مما يؤدى الى اغماض المعنى واشتكاله ، اذ يعرض من ذلك ألا يعلم ما يدل عليه اللفظ ، أو أن يتخيـــل أنه دل على غـــير ماجىء به الدلالة عليه ، فيتعذر فهم المعنى لذلك(٧٢) •

ومما يجب على الشاعر وغيره فى سبيل ايضاح المعنى :

أ ــ أن يجتنب ما توغل فى الحوشية والغرابة ما اســـتطاع حتى تكون دلالته على المعانى واضحة وعبارته مستعذبة •

ب ــ أن ينوط بالألفاظ المشتركة التى تدل على معنيين أو أكثر، من القرائن ما يخاص معناها الى المفهوم الذى قصده ، حتى يـــكون المعنى مســـتبينا •

ومما ورد من المشترك واضطرب الناس فى تأويله لعدم القرينة، قـــول الحارث بن حلزة :

زعموا أن كل من ضرب العير ... موال لنا وأنى الولاء !

فقيل : أراد بالعـــير الوتد ، وأراد بالضاربين العـــرب ، لأنهم كانوا أصحاب عمد ، وقيل : أراد عير العين ، وهو ما نتأ منها ، أى كل من ضرب عير عينه بجفنه ، وقيل : أراد بالعير ما يطفو على الحوض من الأقذاء ، وأصله التشديد وهو العائر والعير ، فخفف كما قيـــل : هين وهين ، وقيل فيه وجوه أخر •

---

(٧٢) منهاج البلغاء : ١٧٣ •

جـ ـ أن يجتنب اللفظ الذى يشتبه فى تركيبه لعارض • ومن ذلك أن تكون كلمة قد وصلت بحرف ، أو حذف منها حرف ، فتتصل بكلمة يحتمل لفظها أن يكون الحرف الموصول بالأول داخلا عليها أو من جملة حروفها ، أو يكون قد دخل على الثانية حرف يخيل لك أنه صلة للأولى ، أو تتمة لما نقص منها فيعرض من هذا فهم الكلام على غير وجهه • ومن هذا قول امرىء القيس :

يطعنهم سلكى ومخلوجة   لفتك لأمين على نابل (٧٣)

لأن الكاف فى « الفتك » محتملة أن تكون ضميرا مضافا اليها ما قبلها ، وأن تكون حرفا جارا لما بعدها ••• (٧٤) •

الابتذال :

وكما أوجب حازم طرح الغريب الحوشى وما فى حكمه من المشترك والمشتبه فيه ، دعى الى اجتناب المبتذل من الألفاظ • فأحسن الألفاظ ما عذب ولم يبتذل فى الاستعمال (٧٥) ، والألفاظ المستعذبة المتوسطة فى الاستعمال ، أحسن ما يستعمل فى الشعر ، لمناسبتها الأسماع والنفوس، وحسن موقعها منها (٧٦) •

---

(٧٣) السلكى بضم السين وسكون اللام : الطعنة المستقيمة تلقاء الوجه ، والمخلوجة : الطعنة ذات اليمين وذات الشمال ، واللفت : الرد واللى ، واللأمين : السهمين عليهما الريش ، مفردها لأم • يقال : لأمت السهم لأما أى رشته • الصحاح مواد : خلج وسلك ولفت ولأم • والمعنى : نطعنهم الطعنة المستقيمة والجانبية وكأنهما طعنة واحدة من شدة سرعتهما كما ترد سهمين على رام رمى بهما تعيدهما عليه مرة واحدة

(٧٤) منهاج البلغاء : ١٨٤ ـ ١٨٦ •

(٧٥) منهاج البلغاء : ٨٢ •

(٧٦) السابق : ٨١ •

ويفضل حازم اللفظ الذى قد يخفى على بعض الجمهور ، مادام عذبا ، وهو عنده أفضل من المبتذل ، فاللفظ المستعذب وان كان لا يعرفه جميع الجمهور ، مستحسن ايراده فى الشعر ، لأنه مع استعذابه قد يفسر معناه لمن لا يفهمه ما يتصل به من سائر العبارة(٧٧) •

وعلى هذا يجب أن تكون الألفاظ وسطا بين الغريب والمبتذل ، ليست ساقطة عامية ، ولا متوعرة وحشية(٧٨) ، وهذا ما نص عليه ابن سنان الخفاجى ، ونسبه الى الجاحظ •

الكلمة بين كثرة الاستعمال وقلته :

والألفاظ منها ما كثر دورانه على ألسنة العرب ، ومنها ما قل استعماله ، ومنها ما استعمله المحدثون دون العرب ، ومنها ما استعمله العرب والمحدثون ، ولكل نوع من ذلك حكم يخصه ، وقد أفاض حازم فى بيان ذلك ، وقسم الكلمة بهذه الاعتبارات تسعة أقسام :

الأول : ما استعملته العرب دون المحدثين ، وكان استعمال العرب له كثيرا فى الأشعار وغيرها ، فهذا حسن فصيح •

الثانى : ما استعملته العرب قليلا ولم يحسن تأليفه ولا صيغته، فهذا لا يحسن ايراده •

الثالث : ما استعمله العرب ، وخاصة المحدثين دون عامتهم ، فهذا أحسن جدا ، لأنه خلص من حوشية العرب وابتذال العامة •

الرابع : ما كثر فى كلام العرب ، وخاصة المحدثين وعامتهم ، ولم يكثر فى ألسنة العامة فلا بأس به •

---

(٧٧) منهاج البلغاء : ٢٩ غ

(٧٨) السابق : ١٨٩ •

الخامس : ما كان كذلك ، ولكنه كثر فى ألسنة العامة،وكان لذلك المعنى اسم استغنت به الخاصة عن هذا ، فهذا يقبح استعماله لابتذاله .

السادس : أن يكون ذلك الاسم كثيرا عند الخاصة والعامة،وليس له اسم آخر ، وليست العامة أحوج لذكره من الخاصة ، ولم يكن من الأشياء التى هى أنسب بأهل المهن ، فهذا لا يقبح ، وليس يعد مبتذلا ، مثل لفظ الرأس والعين .

السابع : أن يكون كما ذكرناه ، الا أن حاجة العامة له أكثر ، فهو كثير الدوران بينهم كالصنائع ، فهذا مبتذل .

الثامن : أن تكون الكلمة كثيرة الاستعمال عند العرب والمحدثين لمعنى ، وقد استعملها بعض العرب نادرا لمعنى آخر ، فيجب أن يجتنب هذا أيضا .

التاسع : أن يكون العرب والعامة استعملوها دون الخاصة ، وكان استعمال العوام لها من غير تغيير ، فاستعمالها على ما نطقت به العرب ليس مبتذلا وعلى التغيير قبيح مبتذل (٧٩) .

فبين حازم فى هذا التفصيل حكم الكلمة حسنا وقبحا ، بناء على كثرة استعمالها وقلته ، ونوع المستعملين لها عربا أو محدثين وخاصة أو عامة .

ولهذا التفصيل أصل عند ابن الأثير ، حيث ذكر فى حديثه عن ابتذال الكلمة ما كان من الألفاظ دالا على معنى وضع له فى اللغة ،

---

(٧٩) عروس الأفراح : ١/٩٣ . ومنهاج البلغاء : ٣٨٥ .

فغيرته العامة ، وجعلته دالا على معنى آخر ، وما لم تغيره العامة عن وضعه ، وانما أنكر استعماله لأنه مبتذل بينهم(٨٠) .

وكثرة دوران الكلمة على ألسنة العرب الفصحاء من مقاييس فصاحة الكلمة عند البلاغيين ، وقد جعلها السكاكى ومن تبعه علامة على فصاحة الكلمة(٨١) .

مخالفة العرف اللغوى :

أشار حازم الى الضرائر باعتبارها خطأ فى القياس يجب توقيه والاحتراز عنه ، وبين رأيه فيها فقال : الضرائر السائغة منها المستقبح وغيره ، وهو ما لا تستوحش منه النفس كصرف ما لا يتصرف ، وقد تستوحش منه النفس فى البعض كالأسماء المعدولة ، وأشد ما تستوحشه النفس ، تنوين أفعل منه ، وما لا يستقبح قصر الجمع الممدود ، ومد الجمع المقصور ، ويستقبح منه ما أدى الى التباس جمع بجمع ، مثل رد مطاعم الى مطاعيم ، أو رد مطاعيم الى مطاعم ، فانه يؤدى الى التباس مطعم بمطعام ، وأقبح الضرائر ، الزيادة المؤدية لما ليس أصلا فى كلامهم كقوله :

من حوثما نظروا أدنو فأنظور

أى أنظر : أو الزيادة المؤدية لما يقل فى الكلام كقول امرىء القيس فى بعض الروايات :

ظالمات شيقالى

---

(٨٠) ينظر المثل السائر : ١/١٩٦ ــ ٢٠٢ .

(٨١) ينظر مفتاح العلوم : ٤١٦ ، وبغية الايضاح : ١/١٨ .

أراد شمالى ، وكذلك يستقبح النقص المجحف كقول لبيد :

درس المنا بمتالع فأبانا

أراد المنازلة ، وكذلك العدول عن صيغة لأخرى كقول الحطيئة :

فما الزجـاج وفيها كل سـابغة   جدلاء محكمـة من نسج سـلام

أراد سليمان عليه السلام(٨٢) .

فيرى حازم أن الضرائر التى أجازها اللغويون منها القبيح الذى تستوحشه النفس ، ومنهـا ما لا يسـتقبح ، وهـو ما لا يؤدى الى التباس وخروج شديد عن العرف اللغوى ، والضرائر عيب من عيوب الفصاحة ، اذ تكون الكلمة جارية على غير العرف العربى الصحيح ، ومخالفـة للقياس ، وقـد أشـار ابن سـنان الى ذلك ، وبـين أن الضرورات الشـعرية تصرف ما لا ينصرف وعكسـه وقصر الممدود ، وغيرها لا تؤثر كثيرا فى فصاحة الكلمة غير أنه يرى صيانة الكلمة عنها، لأنها صفات نقص ، والفصاحة تنبىء عن اختيار الكلمة وحسنها(٨٣)

ولما كانت الضرائر من عيوب الكلمة بين حازم أنه ينبغى التشدد فى اجازتها ، وعدم التوسع فى قبولها ، فيجب ألا يقبـل من الضرائر الا ما وجد فيما أجتمعت عليه الروايات الصـحيحة ، من كلام عليـة الفصحاء منهم ، مما تحقق براعته وانتسابه اليهم (٨٤) .

اعتدال الكلمة فى التأليف :

ذكر حازم أن الكلمة الفصيحة ينبغى أن تكون معتدلة فى تأليفها، فتكون متوسطة بين قلة الحروف وكثرتها ، والمتوسطة ثلاثة أحرف ،

---

(٨٢) عروس : ٨٩/١ . ومنهاج البلغاء : ٣٨٣ .

(٨٣) سر الفصاحة ٧٤ .

(٨٤) منهاج البلغاء : ١٨٠ ، ١٨١ .

فان كانت الكلمة على حرف واحد مثل « ق » فصل أمر قبحت فى الوصل ، وان كانت على حرفين لم تقبح الا بأن يليها مثلها (٨٥) .

وبين حازم حدود القصر والطول والتوسط فقال : المفرط فى القصر ما كان على مقطع مقصور ، والذى لم يفرط ما كان على سبب، والمتوسط ما كان على وتد ، أو على سبب ومقطع مقصور ، أو على سببين ، والذى لم يفرط فى الطول ما كان على وتد وسبب ، والمفرط فى الطول ما كان على وتدين ، أو على وتد وسببين (٨٦) .

فجعل اللفظ من حيث تأليفه خمسة أقسام :

١ ـ قصير ، وهو ما تكون من حرفين .
٢ ـ مفرط فى القصر ، وهو ما تكون من حرف واحد .
٣ ـ متوسط ، وهو ما تكون ثلاثة أحرف ، أو أربعة .
٤ ـ طويل ، وهو ما تكون من خمسة أحرف .
٥ ـ مفرط فى الطول وهو ما تكون من ستة أحرف،أو سبعة .

وقسم حازم الكلمات الطويلة من حيث أصلها قسمين :

١ ـ أن تكون الكلمة طويلة بأصل وضعها .
٢ ـ أن تكون الكلمة متوسطة فتطيلها الصلة وغيرها ، كقول المتنبى :

خلت البلاد من الغزالة ليلها   فأعاضهاك الله كى لا تحزنا

وقول أبى تمام :

ورفعت للمستنشدين لوائى(٨٧)

---

(٨٥) عروس الأفراح : ٩١/١ .
(٨٦) عروس الأفراح : ٩١/١ ، ومنهج البلغاء : ٢٨٤ .
(٨٧) السابق . وصدر البيت : والى محمد ابتعثت قصائدى . سر الفصاحة : ٧٩ .

وقد سبق ابن سنان الى جعل اعتدال تأليف الكلمة من شروط فصاحتها ، ومتى زادت الكلمة في حروفها عن الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة(٨٨) . واعترض عليه ابن الأثير فى هذا الشرط ، كما سبق أن بيناه . وأخذ حازم بهذا الشرط فى فصاحة الكلمة .

اجتماع الحركات الثقيلة :

وهذا مما يتصل باعتدال تأليف الكلمة ، فينبغى في الكلمة الفصيحة أن تتلاءم حركاتها ، ولا تجتمع فيها الحركات الثقيلة حتى لا يؤدى هذا الى ثقلها ، والى هذا أشار حازم ، فجعل من المستقبح تتابع الكسرات وحروف العلة نحو « الكيمياء »(٨٩) . وبين كراهة « الجرشى » فى قول المتنبى ، وعلله بتتابع الكسرات ، وتماثل الحروف، وكونها حوشية (٩٠) .

وهذا الشرط غير موجود عند ابن سنان ولكن سبق اليه ابن الأثير ، حيث جعل من شروط فصاحة الكلمة أن تكون مبنية من حركات خفيفة ليخف النطق بها ، وأشار الى أن وجود شذوذ عن هذه القاعدة فى بعض الألفاظ ، بعدم كراهتهما وثقلها مع توالى الحركات الثقيلة فيها ، لا ينقض هذه القاعدة ، لأنها قائمة على الأعم الغالب(٩١) .

---

(٨٨) سر الفصاحة : ٧٨ .
(٨٩) عروس الأفراح : ١/٩٤ . ومنهاج البلغاء : ٣٨٧ .
(٩٠) عروس الأفراح : ١/٩١ .
(٩١) المثل السائر : ١/٢٠٦ ـ ٢٠٨ .

وقد جعل ابن سنان لفظة « كيمياء » من ألفاظ العوام المبتذلة ، وليست من ألفاظ الخاصة ، ولا يحسن نظم مثلها(٩٢) .

المستعمل فى أمر مكروه :

بين حازم أن اللفظ المعبر به ينبغى ألا يكون دالاً على أمر مكروه فى استعمال آخر . فقال : وقد تكون للعبارة دلالة على أمر مكروه خارج عما جىء بها للدلالة عليه ، اما باشتراك وقع فى اللفظة أو بعرف واستعمال حدث فيه ولو للعامة ، فيجب أن يتحفظ من ذلك ، حيث تتهيأ تلك العبارة بنفسها ، أو مع ما يكتنف بها ، لأن يفهم منها بحسب الاشتراك الواقع فيها ، أو بحسب العرف والاستعمال ، أمر قبيح فى حق ممدوح ، أو مندوب ، أو منسوب به ، أو نحو ذلك مما يكره فى حقه القبح . ومن ذلك قول الصاحب فى عضد الدولة :

ضممت على أبناء تغلب تاءها فتغلب ماكر الجديدان تغلب

فقال عضد الدولة : يقى الله ! (٩٣) .

ومما أكد القبح فى هذه اللفظة التى هى قوله « تغلب » وقوعها قافية ، فانها مقطع الكلام ، وموضع تخلى السامع وتفرغه لتفقد ما مر على سمعه مما وقع فيها ، فالسمع أقرب عهدا به وهو أشد ارتساما فيه ، ولو وردت اللفظة التى أنكرها عضد الدولة فى أثناء البيت لكان الأمر فيها أسهل(٩٤) .

وحازم فى هذا الموضع ينقل عن ابن سنان ما ذكره فى حديثه عن القافية اذ قال : ومما يجب أن يعتمد فى القافية ألا تكون الكلمة اذا

---

(٩٢) سر الفصاحة : ٦٦ .
(٩٣) منهاج البلغاء : ١٥٠ .
(٩٤) منهاج البلغاء : ١٥١ .

سكت عليها كانت محتملة لمعنى يقتضي خلاف ما وضع الشعر له ••• وذكر بيت الصاحب بن عباد المذكور ، وبين أن قـوله « تغلب » فى قافية البيت ، جعلت عضد الدولة يتطير من مواجهته بها ، ولو قالها فى وسط البيت لم يكن فى ذلك من القبح ما كان فى القافية ، لأنهـا موضع قطع وسكوت ووقوف علي ما مضى واستئناف لما يأتى(٩٥) •

ومما يتصل بهذا الشرط وان كان لا يظهر الا فى التأليف :

١ ــ التحفظ من الألفاظ التى يفهم منها ريب أو فحش،ولو بعرف عامى أو استعمال لأهل الهزل ، فهذا مما يجب صون الكلام عنه • ومثل حازم لذلك بقول المتنبى فى أم سيف الدولة :

رواق العز فوقك مسبطر ... وملك على ابنـك فى كمـال

فلفظه « مسبطر » بعد قوله للمرأة « فوقك » قبيحة ، ولاسيما بعد أن استعملها ابن حجاج حيث استعملها ويعرف ذلك من قوله(٩٦)

ونحو منه قول مروان ابن أبى حفصة فى زبيدة بنت جعفر :

يهـزها كل عـرق من أرومتهـا ... يزداد طيبا اذا الأعـراق لم تطب

فلفظة « عرق » بعد قوله « يهزها » قبيحة بالنظر الى ما هـو متعارف عند العامة (٩٧) •

ويسوق حازم وصية بعض الشيوخ فيقول : وقد كان بعض الشيوخ الذين أخذت عنهم هذه الصناعة يوصى باجتناب الألفاظ التى يفهم منها على حدتها ، أو مع ما يكتنفها معنى قبيح ولو بالعرف العامى(٩٨) •

---

(٩٥) سر الفصاحة : ١٧٤ •
(٩٦) منهاج البلغاء : ١٥١ •
(٩٧) السابق : ١٥٢ •
(٩٨) منهاج البلغاء : ١٥٢ •

٢ ـ عدم استعمال الكلمة فى ضد ما تستعمل فيه عرفا ، فاذا عرف فى كلمة استعمالها فى طريق من الطرق ، فالواجب ألا تستعمل فى مضاد ذلك الطريق ، وذلك كقول حبيب :

يا أبا جعفر جعلت فداكا   بزحسن الوجوه حسن قفاكا

فالقفا ليس يليق الا بطريقة الذم وكذلك الأخدع والقذال،فاستعمال هذه الالفاظ فى المدح مكروه(٩٩) .

وقد سبق الخفاجي الى بيان هذا ، وضرب له أمثلة كثيرة منها قول أبى تمام السابق(١٠٠) .

وهذا الذى قدمناه هو ما استطعنا ايراده من أقوال حازم مما يخص فصاحة المفردة ، ومنه يرى أنه يستمد كثيرا من كلام الخفاجي وابن الأثير ، ومن ثم دار فى فلكهما وهو يبين ما يتصل بفصاحة الكلمة ، فلم يخرج عن شروطهما ، وان كان فصل فى بعض المسائل كما رأينا فى حديثه عن حكم الكلمة تبعا لكثرة استعمالها وقلته.

وهو على العموم متأثر فى كتابه بابن سنان ، وكثيرا ما يحكى أقواله ، وينقل عنه(١٠١) .

---

(٩٩) منهاج البلغاء : ١٥٢ .

(١٠٠) ينظر منهاج البلغاء : ٥٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٦ ، ١٦٨ ، ١٨٢ ، ١٨٣ .

(١٠١) ينظر سر الفصاحة ١٥٣ ، ١٥٤ .

بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦هـ) :

عرض بدر الدين بن مالك للفصاحة بإيجاز في كتابه « المصباح في المعاني والبيان والبديع » • وعرف الفصاحة بأنها : صوغ الكلام على وجه له توفية بتمام الافهام لمعناه وتبيين المراد منه(١) •

والفصاحة عنده نوعان : معنوية ولفظية :

فالفصاحة المعنوية : هي خلو الكلام عن التعسف والتعقيد بحيث يكون طريقه الى المعنى واضحة على وفق مقتضى الظاهر ، أو ما فيها من معاطف فقد نصب عليه المنار وأوقد فيها الأنوار ، ولم يخف مسلك المعنى حتى لا يدرى من أين اليه يتوصل ، ولا بأي شيء معناه يتحصل • كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس الا مملكا   أبو أمه حي أبوه يقاربه(٢)

والفصاحة اللفظية : أن تكون الكلمة جارية على القياس ، سالمة عن التنافر ، والابتذال ، دائرة على الألسن ، لا مما أخطأت فيه العامة ، ولا مما أحدث المولدون • فان الكلمة متى لم تكن كذلك ربما مجها السمع ، ونبا عن قبولها الطبع ، وقلت عناية السامع بالكلام ، فلم يحصل على ما له من الافهام •

---

(١) المصباح : ١٥٩ •
(٢) المصباح : ١٥٩ ، ١٦٠ •

وقد ظهر من هـذا أنه لابد فى تكميل الفصاحة من ابانة المعنى باللفظ المختار ، وهى من متممات البلاغة ، ومما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه أعلى درجات التحسين(٣) •

ومن النظر فى كلام ابن مالك عن الفصاحة اللفظية نرى أنه يشترط فى فصاحة الكلمة ما يلى :

١ ــ أن تكون الكلمة جارية على القياس •

٢ ــ أن تكون سالمة عن التنافر •

٣ ــ أن تكون غير مبتذلة •

٤ ــ أن تكون دائرة على الألسن •

٥ ــ ألا تكون مما أخطأت فيه العامة •

٦ ــ ألا تكون مما أحدثه المولدون •

وهذه الشروط هى بعينها شروط السكاكى التى سبق حديثنا عنها ، وبينا أنها مستفادة من شروط ابن سنان الخفاجى •

غير أن ابن مالك نص على عدم ابتذال الكلمة ، وهذا ما لم يرد صراحة عند السكاكى ، وان كان يدخل فى العامى والمولد ، ولعل هذا مما تأثر فيه بابن الأثير الذى نص على هذا الشرط وفصل الحديث عنه(٤) •

---

(٣) السابق : ١٦١ •
(٤) المثل السائر : ١/١٩٦ •

ولا يقتصر نقل ابن مالك من السكاكى على هذه الشروط ، فقد نقل عنه فى هذا الموضوع تقسيم الفصاحة الى لفظية ومعنوية ، وشرحه لكل قسم منهما .

كما تأثر به فى وضع حديثه عن الفصاحة فى مقدمة حديثه عن علم البديع بعد انتهائه من الحديث عن علم البيان .

ولا عجب فى ذلك فكتاب « المصباح » لابن مالك هو تلخيص واختصار للقسم الثالث من كتاب « المفتاح » للسكاكى ، مع التوسع فى الشواهد ، والاستفادة بكتب الآخرين(٥) .

وذكر الدكتور شوقى ضيف أن بدر الدين بن مالك أدخل فى كتابه بعض تعديلات على منهج السكاكى من ذلك أنه نقل مبحث البلاغة والفصاحة من ذيل البيان الى فاتحة المختصر(٦) . ونقل محقق المصباح هذا الكلام دون تعقيب(٧) .

والصحيح أن ابن مالك لم ينقل مبحث البلاغة والفصاحة معا ، بل نقل الحديث عن البلاغة فقط الى مقدمة كتابه : أما الحديث عن الفصاحة فأبقاه فى موضعه وجعله مقدمة للحديث عن علم البديع كما فعل السكاكى (٨) .

الطوفى (ت ٧١٦هـ) :

عقد سليمان بن عبد القوى الطوفى فصلا جيدا فى كتابه « الأكسير فى علم التفسير » شرح فيه صفات الألفاظ التي تستحق

---

(٥) ينظر البلاغة تطور وتاريخ : ٣١٥ ، ومقدمة تحقيق المصباح : م
(٦،٧) ينظر المرجعان السابقان .
(٨) ينظر المصباح : ٣،٤،١٥٩ ـ ١٦١ . وينظر مفتاح العلوم :٤٢٣
(٨) ينظر المصباح : ٣،٤،١٥٩ ـ ١٦١ . وينظر مفتاح العلوم :٤٢٣

بها الحسن والجودة ، مستفيدا من الخفاجي وابن الأثير وغـيرهما ، ومتعقبا ابن الأثير في بعض آرائه .

وفي بداية هذا الفصل بين أن الألفاظ ضربان : مفردة ، ومركبة ، ولكل منهما صفات تستحق بها رتبة الحسن والجودة (١) .

ثم تحدث الطوفي عن صفات الألفاظ المفردة وهي ست :

الصفة الأولى : تباعد مخارج حروفها .

وقد أشار الى أن هذا الشرط مبني على الغالب ، فليس المـراد أن متباعد المخارج يستلزم الحسن . ومتقاربها يستلزم الرداءة ، بل ان الغالب على الأول الجودة ، وعلى الثاني الرداءة ، وقـد يكون حسنا كالجيم والشين والياء ، فهي متقـاربة ويتركب منهـا : جيش وشجي ، وهما لفظان رائقان جيدان(٢) .

وبين الطوفي في العلة في جـودة ما تباعدت مخـارجه ، ورداءة ما تقاربت مخارجه حاكيا رأي ابن الأثير ورأي الخفاجي في ذلك :

فرأي ابن الأثير يقوم على أن ما تباعدت مخارجه يحصل للنطق في تأليفه مهلة وأناة ، فتجيء الحروف مستقرة ممكنة ، كمن يمشي في أرض سهلة مسـتوية ، وما تقاربت مخـارجه فان النطق في تأليفـه لا يخرج من مخرج الا وقد غيره فيما بعـده ، فتجيء حروفه قلقلـة مكدودة غير مستقرة ولا ثابتة كمن يمشي في أرض وعرة كثيرة الصعود والهبوط ... وهذا وجه حسن(٣) .

---

(١) الاكسير : ٦٨ .

(٢) السـابق .

(٣) الاكسير : ٧٣ ، وينظر الجامع الكبير : ٤١ .

ورأى الخفاجى يقوم على أن نسبة الأصوات الى حاسة السمع كنسبة الألوان الى حاسة البصر وكما أن الألوان كلما تباعدت كانت أحسن ، فكذلك الأصوات ... وهذا توجيه حسن جميل(٤) .

وساق الطوفى اعتراض ابن الأثير على توجيه الخفاجى وتعقبه فى هذا الاعتراض ، ورد عليه ردا مطولا ، ورجح توجيه الخفاجى(٥) ، وقد ذكرنا ذلك فى حديثنا عن الخفاجى ، فلا مجال لتكراره .

ونظر لما لمخارج الحروف وصفاتها من صلة بهذا الشرط ، فقد فصل الطوفى القول فى الحروف ومخارجها وصفاتها ، وبين ما يحسن منها فى الأبنية ، وما يقبح ، وأوجب رعاية هذه الاعتبارات فى الألفاظ ليكون الكلام سلسا على اللسان(٦) .

الصفة الثانية : أن تكون مألوفة قد صقلتها الألسن ، وأنست بها الأسماع والقلوب لكثرة دورانها فى الاصطلاح ، غير وحشية ولا متوعرة(٧) .

ويشير الطوفى هنا الى أصل ينبغى مراعاته ، هو أن وصف الكلمة بأنها مألوفة أو وحشية ليس لذاتها ، بل صفة اضافية لها ، فهى بالاضافة الى من كثر دورانها فى كلامه ، وأنس بها سمعه مألوفة ، وبالاضافة الى عكسه بالعكس . ألا ترى أن العرب كانوا يستعملون فى مفاوضاتهم ألفاظا لا يفهمها من أهل زمننا الا كل فاضل بارع النظر

---

(٤) الاكسير : ٧٣ ، وينظر سر الفصاحة : ٦٦ .
(٥) ينظر الاكسير : ٧٣ ــ ٧٥ .
(٦) ينظر الاكسير : ٦٨ ــ ٧٢ .
(٧) الاكسير : ٧٥ .

فى كتب اللغة ، وكان ذلك بالنسبة اليهم فصيحا حسنا رائقا كالألفاظ التى فى حديث أم زرع ، وحديث طهفة النهرى ، ولو استعملها أحد من هؤلاء الحاضرة تكلفا لعد قبيحا ، ومن عده فصاحة أخطأ(٨) .

ويرى الطوفى أن الناظم أعذر من الناثر فى استعمال الوحشى لانطلاق عنان الناثر فى التأليف ، وتقييد الناظم بالعروض والقافية ، لكن ينبغى للناظم اجتناب الوحشى ما أمكن (٩) .

وقد تأثر فى هذا بابن الأثير الذى سبق الى التفريق بين الناظم والناثر فى استعمال الغريب(١٠) .

وللطوفى رأى فى بعض ما حكم عليه بالوحشية ، ففى قول الشاعر يصف المطر :

متغطمط فصب الوحوش مكانها تيـاره فالضـب جـار الضـفدع

حكم النقاد بأن قوله : « متغطمط » أى : متلاطم ، من الوحشى ، ولو جعل عوضها . متدارك ، أو متراكم ، أو متلاطم ، لأدت معناها . ويرى الطوفى أن هذه اللفظة ليست متوغلة فى الوحشية ، ولفظها مشعر بالكثرة والحركة وشدة الاضطراب والغليان ، فلا يقوم مقامها شىء من الألفاظ المذكورة(١١) .

ونحن مع الطوفى فى أن لفظ « متغطمط » يوحى بما لا يوحى به غيره من الألفاظ ، ولكنه من ناحية أخرى ثقيل على اللسان بسبب ما فيه من تنافر ، وهذه ناحية يعاب منها اللفظ غير ناحية الوحشية .

---

(٨) السابق : ٧٥ ، ٧٦ .
(٩) السابق : ٧٧ .
(١٠) المثل السائر : ١/١٨٣ وما بعدها .
(١١) الاكسير : ٧٧ .

الصفة الثالثة : ألا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة • وذلك قسمان:

أحدهما : أن يدرك اللفظ بالوضع على معنى ، فتنقله العامة الى غـيرها ، وهو نوعان :

الأول : ما نقلته الى معنى مستقبح كقول المتنبى :

أذاق الغوانى حسنه ما أذاقنى   وعف فجازاهن عنى على الصرم

فان الصرم فى اللغة القطيعة ، واستعمله العامة فى معـنى آخـر قبيـح(١٢) :

والثانى : ما نقلته العامة الى معنى غير مستقبح • كتسـميتهم الانسان اذا كان حسن الصـورة واللباس ••• ظريفـا ، وانما هو فى وضع اللغة للحسن النطق(١٣) •

والقسم الثانى : ماكره استعماله لمجرد ابتذال العامة له ، لا لكونه محرفا عن وضعه ولا مستقبحا كلفظة « اللقالق » فى قول المتنبى :

وملمومـة سـيفية ربعيـة   يصـيح الحصـا فيها صياح اللقالق

فهذا ومثله مما ينبغى اجتنابه لغثاثته وابتذاله(١٤) •

الصفة الرابعة : ألا تستعمل للفظ المشـترك بين معنيين : حسن ومستكره بلا قرينة تميزه ، اذ بدون القرينة يسبق الى الوهم المعنى المستكره ، فتمجه النفس وتنفر منه ••• وضرب الطوفى لذلك أمثلـة

---

(١٢) السابق : ٧٧ ، ٧٨ •
(١٣) السـابق : ٧٩ •
(١٤) الاكسير : ٨٠ ، ٨١ •

ذكرها الخفاجي وابن الأثير ، وانتهى من ذلك الى أن اللفظ الذى يبادر الذهن منه الي معنى مستكره اما أن يتجرد عن قرينة أولا ، فان تجرد عن قرينة كان مذموما ، وان اقترنت به قرينة ، فهي اما قوية مزيلة للقبح نحو « مقاعد للقتال » (١٥) ، واما ضعيفة لا تزيله ، بل ، ربما كان عدمها أيسر حالا نحو : « مقاعد العواد » فى بيت الشريف الرضى(١٦) •

الصفة الخامسة : تصغير اللفظة حيث يعبر بها عن معنى خفيف أو لطيف أو ضعيف للتناسب بينهما • وذكر الطوفى فى هذا الموضع بعض مسائل التصغير ••• وانتهى الى أنه لا ينبغى الاكثار من التصغير ونحوه فى الكلام لأن مثله فى الكلام ، كالوشى فى الثياب ، فالمتع بهما أولى ، وأحسن توشية ، لأن النفس تمل الكثير(١٧) •

الصفة السادسة : أن تكون مركبة من أقل الأوزان تركيبا ، وهو الثلاثى ، لاشتماله على البداية والوسط والنهاية ، وهو أوسط الأبنية ، اذ الحرف الواحد لا يفيد ، والحرفان اجحاف ، وليسا بمكان من العذوبة ، والرباعى والخماسى ثقيلان ، ولهذا كانت أكثر ألفاظ الكتاب العزيز ثلاثية ، والرباعى فيه قليل ، ولا خماس فيه أصلا ، الا ما كان من أسم نبى نحو : ابراهيم واسماعيل ، وهى أعجمية لا عربية ، ولا يقال فيه : « فسيكفيكهم » و « أنلزمكموها » و « يستخلفنهم » وهى أكثر من الخماسى ، لأنا نقول : كل من هذه كلمات ، وكلامنا فى الكلمة الواحدة • بخلاف قول المتنبى :

ان الكرام بلا كرام منهم   مثل القلوب بلا سويداواتها

(١٥) آل عمران : ١٢١ •
(١٦) الاكسير : ٨١ ـ ٨٥ •
(١٧) السابق : ٨٥ ـ ٨٨ •

فانها كلمة واحدة ، وقد استهجنت منه لكثرة حروفها(١٨) •

وبعد أن انتهى الطوفى من ذكر الصفات الست ذكر صفتين أخريين :

أحدهما : كون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح ، غير شاذة ، وبين أن الخفاجى هو صاحب هذا الشرط ، وأن ابن الأثير خالفه فيه ، وأيد الطوفى نظرة ابن الأثير(١٩) •

وثانيهما : بناء الكلمة من حركات خفيفة ، وأشار الى أن ابن الأثير زعم أنه ابتكر هذه الصفة ، وأنكر عليه ذلك ، وبين أنه مسبوق بهذا ، والأجود مما قاله ما ذكره غيره وهو : اعتدال الكلمة فى حركاتها ، اذ خير الأمور أوسطها ، فالأخف والأثقل طرفان ، والأعدل واسطة حسنة • وأعدلها حركتان وساكن ، فان أعوز فثلاث حركات ، وأربع حركات ثقيلة ، والخمس أولى ، ولذلك لا يحتملها الشعر(٢٠) •

وبهذا يكون الطوفى قد شرط لفصاحة الكلمة ثمانية شروط لا تخرج عما ذكره الخفاجى وابن الأثير •

ودراسة الطوفى مفصلة وجيدة ، وله فيها نظرات صائبة ، وقد اعتمد فى جلها على الخفاجى وابن الأثير كما اعتمد على ميثم البحرانى ونقل بعض آرائه وأسندها اليه(٢١) •

---

(١٨) الاكسير : ٨٨ ، ٨٩ •
(١٩) الاكسير : ٩٠ •
(٢٠) السابق : ٩٠ ، ٩١ •
(٢١) ينظر الاكسير : ٩٠ ، واصول البلاغة : ٤٣ ، ٤٤ •

شهاب الدين الحلبي (ت ٧٢٥هـ) :

تحدث الحلبي عن البلاغة والفصاحة فى كتابه « حسن التوسل الى صناعة الترسل » وقال أن الفصاحة هى : خلوص الكلام من التعقيد(١) ... وهو كما نرى تعريف قاصر اذ التعقيد عيب مخل بفصاحة الكلام ، وليس هو كل ما يخل بفصاحة الكلام ، فهناك عيوب أخرى كتنافر الكلمات وضعف التأليف ومن ثم فخلوص الكلام من التعقيد وحده لا يجعله فصيحا ، بل لابد من خلوصه من كافة العيوب المخلة بفصاحته ، وهذا التعريف هو نفس تعريف الرازى للفصاحة(٢) .

وتكلم الحلبى عن فصاحة المفرد فقال : ففصاحة المفرد خلوصه من تنافر الحروف كقول أعرابى سئل عن ناقته (تركتها ترعى الهعخع) وكقول امرىء القيس : « غدائره مستشزرات الى العلا » . ومن الغرابة وهى أن تكون الكلمة وحشية كما قال عيسى بن عمر النحوى وقد سقط عن دابته « ما لكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى » أى اجتمعتم على تنحوا .

ومن مخالفة القياس كقول الراجز : « الحمد لله العلى الأجلل » فان القياس الادغام(٣) .

فبين الحلبى أن الكلمة الفصيحة هى الخالية من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس . وهذه الشروط الثلاثة تنضوى فيما ذكره ابن سنان الخفاجى من شروط لفصاحة الكلمة .

---

(١) حسن التوسل : ١٠٣ .
(٢) نهاية الايجاز : ٩ .
(٣) حسن التوسل : ١٠٣ .

محمد الجرجانى (ت ٧٢٩هـ) :

عرض محمد بن على الجرجانى فى كتابه « الاشارات والتنبيهات » الى فصاحة المفردات وبين أن فصاحتها تكون بخلوها عن أمور ستة :

١ ـ أن تخلو عن اجتماع المثلين من غير ادغام ، كالأجلل فى قول الشاعر :

الحمد لله العلى الأجلل

وعن اجتماع المتقاربين فى المخرج لاسيما حروف الحلق ، كهعخع ومستشزرات(١) .

٢ ـ أن تخلو عن الغرابة ، فان المألوف محبوب ، وغير مكروه ، ومن ذلك الدردبيس فى قول أبى تمام :

بنداك يوسى كل جـرح يعتلى رأب الأساة بدردبيس قنطر

والدردبيس والقنطر معناهما واحد وهو الداهية(٢) .

٣ ـ ألا تكون الكلمة عامية كتفرعن فى قول أبى تمام :

جليت والموت مبد حر صفحته وقد تفرعن فى أفعاله الأجل

ويلحق بذلك كله ما حذف منها أو زيد على غير قياس.أما الحذف فكقول رؤبة :

قواطنا مكة من ورق الحما

أراد الحمام ، وأما الزيادة فكقول ابن هرمة :

وأنت من الغواية حين ترمى وعن عيب الرجال بمنتزاح

---

(١) الاشارات والتنبيهات : ٤ .

(٢) السابق : ٥ .

أراد منتزح(٣) .

٤ ــ ألا تكون الكلمة معبرة عن غير ما عبرت به العرب ، كأيم في قول أبي عبادة :

تشق عليه الريح كل عشية   جيوب الغمام بين بكر وأيم

أراد بالأيم الثيب ، وانما هو المرأة التي لا زوج لها(٤) .

٥ ــ ألا يكون للكلمة المستعملة معنى آخر يكره ذكره..كالكنيف، والغائط(٥) .

٦ ــ ألا تكون الكلمة خارجة عن حد الاعتدال كثيرا ، كمغناطيس، وأذربيجان(٦) .

وكلام الجرجاني في هذا الموضوع لا جديد فيه ، وقد اعتمد فيه على الخفاجي ، كما أن في كلامه خلطا واضطرابا ، حيث ضم تقارب المخارج مع اجتماع المثلين في شرط واحد ، وهما مختلفان ، فاجتماع المثلين من غير ادغام من قبيل مخالفة قياس ، وتقارب المخارج من قبيل التنافر والثقل .

وتحدث عن الحذف والزيادة في الكلمة في حديثه عن استعمال العامي ، وليسا من واد واحد ، فالحذف والزيادة من مخالفة القياس.

وجعل التعبير بالكلمة عن غير ما عبرت به العرب شرطا منفصلا . وهو من مخالفة القياس والعرف عند الخفاجي .

---

(٣) السابق : ٦ ، ٧ .
(٤) السابق : ٧ .
(٥،٦) الاشارات والتنبيهات : ٨

ابن الأثير الحلبى (ت ٧٣٧هـ) :

تحدث أحمد بن اسماعيل بن الأثير الحلبى فى كتابه « جوهر الكنز » عن فصاحة الألفاظ متأثرا بما كتبه الخفاجى وابن الأثير حيث لم يخرج فى كلامه عما ذكراه من شروط لفصاحة الكلمة ، وقد تناول ما ذكره منها بالتفصيل ، وهى كما يلى :

١ — تباعد مخارج الحروف : فان الحروف اذا تباعدت مخرجها كانت أحسن من المتقاربة المخارج ، ومهما كان اللفظ قريب المخرج من أخيه كان قبيحا ، اذا الألفاظ لقرب مخارجها تكون مكدودة قلقة غير مستقرة فى أماكنها ، ومهما كانت الحروف بعيدة المخارج جاءت متمكنة فى أماكنها غير قلقة ولا مكدودة(١) .

٢ — استعمال الكلمات غير الحوشية ولا المتوعرة : والمراد بالحوشية ، القليلة الاستعمال ، وذلك عيب فى الكلام فاحش ، فيجب اجتنابه .

وينبه ابن الأثير الحلبى على نقطة هامة هى أن الحوشية أمر نسبى يخضع للمتكلمين وزمانهم ، فكل زمان تكون الفصاحة فيه بحسب فهم أهله للألفاظ الدائرة بينهم .

والعرب كانت قبائل ، ولكل قبيلة لغة هى حوشية عند غيرهم ، فالفصاحة مخاطبة كل قوم بلغتهم الدائرة بينهم .

ويستشهد على ذلك بحديث طهفة بن أبى زهير النهدى حين قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه بألفاظ غريبة ، وأجابه

---

(١) جوهر الكنز : ٣٥ .

الرسول صلي الله عليه وسلم بكلام غريب من جنس كلامه(٢) ، ويعلق على هذا الحديث بقوله : فانظر الى هذا الكلام الصادر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحسنه فى بابه مع غرابته وكونه غير مفهوم لكثير من النـــاس .

وينتهى من ذلك الى أن الانسان اذا خاطب قوما بلغاتهم الدائرة بينهم، المفهومة عندهم . المستعملة ألفاظهـا لا يكون ذلك من بـاب الحوشى ، بل هو من الفصاحة ، الا اذا استعمله عند غيـر أرباب تلك اللغــة(٤) .

وهذه الفـكرة ليست بجديدة عنـد الحلبى ، فقد أشـار اليها السابقون وعلى رأسهم الجاحظ الذى ذكر أنه لا ينبغي أن يكون اللفظ غريبا وحشيا الا أن يكون المتـكلم بدويا اعـرابيا ، فان الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى(٥) وتحدث عنها ابن الأثير فى « المثل السائر » ولكنها تجلت بوضوح عند الحلبى ، حيث فصلها ، ودافع عنها بشدة .

الا أننا نرى ربطها بحالات خاصـة وعدم التوسـع فيها ، لأن الأدب الحي مقروء على مر العصور والأجيال ، فينبغى أن تكون لغته وسطا بين الغرابة والابتذال ، فلا تكون متوعرة حوشية ، ولا ساقطة عامية ، وبذا يتصل نبضها بين الناس على الدوام .

---

(٢) ينظر الحديث كاملا فى جوهر الكنز : ٣٧ ـ ٣٩ .
والمثل السائر : ١/٢٣١ ـ ٢٣٤ .

(٣) جوهر الكنز : ٣٩ .

(٤) السابق : ٣٩ .

(٥) البيان والتبيين : ١/١٤٤ .

أما المخاطبات الخاصة التى لها ظروفها وأحوالها فهى تخضع للحال المناسب لها . والرسول صلى الله عليه وسلم ، قد راعى أحوال هؤلاء المخاطبين وغيرهم من أصحاب اللهجات ، الذين لا يحسنون سواها ، أو يعتزون بها ، وربما كان فى ذلك نوع من تأليف قلوبهم باشعارهم بأن لهجتهم الخاصة جديرة بأن يستعملها رسول الله صلى الله عليه وسلم(٦) .

ومن ثم علق صاحب المثل السائر على حديث طهفة بقوله : ان فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد فى كلامه الا جوابا لمن يخاطبه بمثلها ، كهذا الحديث وما جرى مجراه(٧) .

فبين أن هذا الحديث وما يشبهه قيل فى حالة خاصة تقتضيه وليس سمة عامة لفصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد سبق أبو هلال العسكرى الى بيان مراعاة النبى صلى الله عليه وسلم لأحوال الناس فى مكاتباته ومخاطباته ، وضرب مثالا بكتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى عظيم فارس وألفاظه فى غاية السهولة ، وكتابه الى وائل بن حجر الحضرمى ، وألفاظه فخمة ضخمة، وعلق عليهما بقوله : فسهل صلى الله عليه وسلم الألفاظ فى كتابه الى كسرى غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شىء على من له أدنى معرفة فى العربية ، ويمكن ترجمته . ولما أراد أن يكتب الى قوم من العرب فخم اللفظ ؛ لما عرف من فضل قوتهم على فهمه ، وعادتهم لسماع مثله(٨) .

---

(٦) الغرابة فى الحديث النبوى : ١٤٦ .
(٧) المثل السائر : ١/٢٣٤ .
(٨) الصناعتين : ١٦١ .

٣ ــ الاحتراز من المبتذل بين العامة : والمبتذل عنــده ما كان من الألفاظ دالا على معنى وضع فى أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالا على معنى آخــر •

وقد قسمه الى ضربين :

ضرب مستحسن ، وهو ما غيرته العــامة عن موضــوعه الأصلى وعبروا به عن معنى آخر •

وضرب مستقبح ،وهو ما غيرته العامة عن موضــوعه الأصلى ، وســموا به معنى آخر •

فالضرب المستحسن كقولهم : فلان جميل الوجه ، حلو الشمائل، مليح القامة ، ظريف الحركات ، كامل الحسن ، وأصــل هذه الصفات التى تذكرها العامة لم تضعها العرب لمــا وضــعتها العامة عليه ، وانما كانت العرب اذا أخذت فى صفات خلق الانسان قالوا : الصــباحة فى الوجه ، والوضاءة فى البشرة ، والجمال فى الأنف والحلاوة فى العينين ، والملاحة فى الفم ، والظرف فى اللسان ، والرشاقة فى القد ، والنيــاقة فى الشمائل ، وكمال الحســن فى الشعر ، فغيرتها العامة الى ما هو دائر بينهــم •

ومثال الضرب المستقبح : الألفاظ التى غيرتها العامة عن معنــاها الأصلى ، واستعملتها فى معنى قبيح أو مذموم ، وبذلك كره استعمالها، وصارت الفصاحة تأباها (٩) •

وتعريف الحلبى للضربين واحد ، وكان يجب أن ينبه على هذا فى تحقيق الكتاب ، وربما يكون تعريف الضرب الثانى ناقصــا وأصله : وسموا به معنى آخر قبيحا • فبهذا يظهر الفرق بين الضربين •

---

(٩) جوهر الكنز : ٣٩ ، ٤٠ •

وهذان الضربان منقولان عن المثل السائر • وهما للقسم الأول من المبتذل والضرب الثانى منهما يدخل فى المشترك بين معنيين أحدهما يكره ذكره • وهو الشرط الذى سيأتى بعد هذا • ولم يذكر الحلبى القسم الثانى من المبتذل ، وهو ما لم تغيره العامة عن وضعه وانما أنكر استعماله لابتذاله بينهم (١٠) •

٤ ـ الاحتراز عن المعبر به عن معنى يكره ذكره الا أن تنضم اليه قرينة تصرفه عن المعنى المكروه فانه يجوز استعماله مثال ذلك قوله تعالى فى حق النبى ﷺ : « فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه » فلفظة التعزير موضوعة لمعنى مكروه ، فلما ضم اليها فى الآية قرينة « آمنوا به » « ونصروه » فهم أن المراد بلفظة التعزيز الاكرام لا ما وضعت له فى أصل اللغة ، فحسن استعمالها بهذا الاعتبار (١١) •

٥ ـ الاتيان باللفظة المؤلفة من أقل الأوزان تركيبا ، وذلك أن الكلمة اذا تركبت من حروف قليلة ، خفت على النطق بها ، بخلاف ما اذا كانت مؤلفة فى حروف كثيرة ، فانه يثقل النطق بها على اللسان وعلى السماع (١٢) •

٦ ـ أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة ، وذلك أن الكلمة اذا كان فيها حركتان متواليتان ساغ قبولها فى الأسماع • فأما اذا كانت ثلاث حركات متواليات فى كلمة واحدة استكرهت قليلا ، فاذا كانت أربع حركات فانها تثقل أكثر (١٣) •

---

(١٠) ينظر المثل السائر : ١/١٩٨ •
(١١) جوهر الكنز : ٤٠ ، وينظر المثل السائر : ٢٠٢/١ •
(١٢) جوهر الكنز : ٤٠ •
(١٣) السابق : ٤٢ •

ويتضح مما سبق أن ابن الأثير الحلبي ناقل عن الخفاجي ، وابن الأثير الجزري ، ولم يضف شيئا ذا بال الى ما ذكراه ، وفى كلامه اضطراب فى بعض المواضع .

الطيبي (ت ٧٤٣هـ) :

تحدث شرف الدين الطيبي فى كتابه « التبيان » عن أوصاف اللفظة المفردة وذكر أنها ستة :

١ ـ أن يكون تركيبها من الحروف اللذيذة العذبة .... ويجتنب فى التأليف ما كان قريب المخارج لاسيما حروف الحلق فانها متناهية فى الثقل(١٤) .

٢ ـ أن يجتنب توالى أكثر من حركتين ، ويجتنب الحركات الثقيلة(١٥) .

٣ ـ أن تكون متوسطة بين قلة الحروف وكثرتها(١٦) .

٤ ـ ألا تكون وحشية غير مألوفة(١٧) .

٥ ـ ألا تكون مبتذلة(١٨) .

٦ ـ ألا تكون مشتركة بين معنيين أحدهما مكروه وجيء بها مطلقة(١٩) .

وقد اعتمد الطيبي فى حديثه على الخفاجي وابن الأثير والسكاكي، واهتم اهتماما خاصا بما كتبه ابن الأثير عن الفصاحة ، وبين أنه سيلخص ما بسطه مع زيادات مفيدة وحسن تأليف(٢٠) .

---

(١٤) التبيان : ٤٧١ ، ٤٧٢ .
(١٥) السابق : ٤٧٣ .
(١٦) السابق : ٤٧٣ ـ ٤٧٥ .
(١٧) السابق : ٤٧٦ .
(١٨) السابق : ٤٧٦ .
(١٩) السابق : ٤٧٧ .
(٢٠) السابق : ٤٦٧ .

التنــــوخى (ت ٧٤٨هـ) :

تكلم زين الدين محمد بن محمد بن عمــرو التنوخى فى كتــابه « الأقصى القريب » عن الفصاحة والبلاغة والبيان ، وبين أنها ألفاظ تشترك فى كثير من المعانى ويختص كل واحد منها بما ليس للآخر(١) •

وتحدث عن الكلمات المفردة فبين أن منها ما يستحسن ، ومنهــا ما يستبشع وذلك بحسب أمور منها :

ـ تباعد مخارج الحروف وتقاربها •

ـ المألوف والحــوشى •

ـ ما لم تبتذله العامة وما ابتذلوه •

ـ أن تكون الكلمة وضعت فى أصل وضعها غير مستقبحة المعنى،ثم صرفها الاصطلاح آنفا الى ما يستقبح •

ـ التصغير فيما يليق به وما لا يليق •

ـ التركيب من أخف الأوزان وأثقلها •

ـ خفة الحركات أو ثقلها(٢) •

فالكلمة تكون حسنة عنده أذا استوفت ســبعة شروط هى : أن تكون متباعدة المخارج ، مركبة من أخف الأوزان ، وأخف الحركات ، مألوفة الاستعمال ، غير مبتذلة ، ولا مستقبحة ، ولا مصغرة فى غير موضع التصــغير •

وهذه الشروط لا تخرج عن شروط الخفاجى وابن الأثير •

---

(١) الأقصى القريب : ٣٣ •

(٢) السابق •

وفصل التنوخي الحديث في بعض ما يتصل بهذه الشروط ، وساعد على انتقاء الألفاظ الحسنة .

ففيما يتصل بالمخارج وخفة الأوزان والحركات تحدث عن مخارج الحروف ، وصفاتها (٣) . وأصول الكلمات وزوائدها ، ودرجات الحروف والحركات في الخفة والثقل ، فالحروف منها ما هو خفيف ومنها ما هو ثقيل ، ومنها ما هو خفيف بالنسبة الى شيء وثقيل بالنسبة الى شيء آخر ، وأخف الحروف حروف المد واللين ، وهي : الألف والياء والواو .

والألف أخف من الياء ، والياء أخف من الواو ، والحرف الساكن أخف من المتحرك ، والمفتوح ، أخف من المكسور ، والمكسور أخف من المضموم ، والحرف اذا انكسر ثقل ، والانتقال من الواو الى الياء ثقيل ، والانتقال من الياء الى الواو أثقل منه ، والضمة والكسرة مثلهما .

وهذه الناحية الصوتية تأثر فيها بابن جني والخفاجي ، وهو على جانب كبير من الأهمية ، وينبغي أن تضم الى حديث البلاغيين في فصاحة الكلمة .

وفيما يتصل بالمألوف والحوشي يرى أن المتكلم ينبغي أن يجتنب حوشي الكلام الا أن ألجأت اليه ضرورة . والحوشي والوحشي بمعنى واحد وهو الذي يبعد فهمه على أكثر من يسمعه ، ولا يكون ذلك معيبا الا اذا قام مقامه غيره من البين لأكثر الناس ، وليس ذلك بالنسبة الى من كان لغته من العرب ، ولا من تكلم معهم به ، لما روى أن رسول الله ﷺ خاطب طهفة النهدي بالغريب(٤) ...

---

(٣) السابق : ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) ينظر الحديث كاملا في المثل السائر : ٢٣٢/١ .

انما يعاب ذلك على مثل ابن الرومى فى قوله :

اسقنى الاسكركة الصـ ـنبر فى جعضلفونه
واترك الفيجن فيه يا خليلى بغصونه (٥)

فبين التنوخى معنى الحوشى ، وحث على اجتنابه ، وأجاز استعماله للعرب الذين طبعوا عليه ، ولمن تكلم معهم ، وفى حالات الضرورة ، وقد سبق الى هذا كثير من المتقدمين .

وبخصوص ما نقلته العامة على أصله ميز التنوخى فيه بين نوعين :

ما نقل من معنى غير مستقبح الى معنى مستقبح ، وهذا ينبغى اجتنابه .

— ما نقل من معنى حسن الى معنى حسن أو من معنى قبيح الى مثله وهذا لا حرج فى استعماله (٦) .

وبين التنوخى أن مما ينبغى اجتنابه من الألفاظ ما ابتذلته العامة وكثر فى كلامها وان كان صحيحا كالقفا والرقبة ، والحسن أن يعدل عنه الى الظهر والعنق .

ومما ينبغى اجتنابه ما هو مشترك بين ضدين الا أن يكون معه قرينة تخصصه بالمراد ، كقولك : عزرت فلانا ، فهو مشترك بين أن يكون عظمته أو أهنته (٧) .

ولا جديد عند التنوخى فى كل هذا فقد تحدث عنه المتقدمون وبيناه فيما سبق .

---

(٥) الأقصى القريب : ٣٥ ، ٣٦ .
(٦) الأقصى القريب : ٣٦ .
(٧) السابق .

يحيى بن حمزة العلوى (ت ٧٤٩هـ) :

تحدث العلوى عن الفصاحة والبلاغة فى كتابه « الطراز » متأثرا بما كتبه « ابن الأثير » بل ناقلا كثيرا مما كتبه دون أن يصرح بذلك •

وعرف الفصاحة بقوله : هى خلوص اللفظ عن التعقيد فى تركيب الأحرف والألفاظ جميعا(١) • وهو تعريف قاصر ، لأنه لم يحترز فيه الا عن عيب واحد من عيوب الفصاحة وهو التنافر فى الكلمة والكلام، وخلو الكلمة أو الكلام عن هذا العيب لا يعنى بالضرورة فصاحته،فهناك عيوب أخرى تخل بالفصاحة وسبقه العلماء الى بيانها•وقد سبقه الشهاب الحلبى بهذا التعريف(٢) •

وتناول فصاحة المفردات من ناحيتين :

ناحية بتأليف حروف الكلمة ، وناحية الكلمة ذاتها •

أولا : تأليف حروف الكلمة :

بين العلوى أن الحروف تختلف فى العذوبة والسلاسة ، الا أن شيئا منها غير مستكره ، ولكن الاستكراه انما يعرض من أجل التأليف لما يحصل بسببه من التنافر والثقل ، فلأجل هذا كانت العناية باحكام التركيب والتأليف ، لأنه ربما حصل على وجه يفيد رقة اللفظ وحلاوته فيكون حسنا ، وربما حصل على وجه يفيد ثقلا وتعثرا فى اللسان فيكون قبيحا •

ومن هنا لم يجمع الواضع بين حروف مخصوصة ، كالعين والحاء، أو الغين والخاء ، أو الجيم والصاد ، أو الجيم والقاف ، أو الذال

---

(١) الطراز : ١٠٤/١ •

(٢) حسن التوسل : ١٠٣ •

المعجمة والزاى ، وذلك لما يحصل من تأليف هذه من البشاعة والثقل على اللسان فى النطق(٣) .

ويتابع ابن الأثير فى أن مرجع الحكم بحسن الألفاظ وقبحها الى الذوق ، وينفى أن تكون مخارج الحروف سببا فى قبح اللفظ أو حسنه، كما ذهب « ابن سنان » وغيره ، فانهم عولوا على أن قرب المخارج يكون سببا فى قبح اللفظ ، والتباعد فى المخرج يكون سببا فى حسن اللفظ ، وهذا فاسد ، فانه ربما يعرض استكراه فى النطق لما كانت حروفه متباعدة مثل « ملع » ... وقد يكون الحسن فيما كانت حروفه متقاربة مثل « ذقته بفمى » .

كما أن الكلمة قد تؤلف تأليفا مخصوصا ، وتكون فى غاية الركة على اللسان،فاذا عكست حروفها صارت أرق ما يكون وألطف وأعجب، ومثال ذلك : « ملع » و « علم » فالأولى باردة ركيكة والثانية رقيقة لطيفة ، وهما من حروف واحدة .

وبهذا يتثبت أن مستند الاعجاب فى حسن تأليف اللفظة انما هو الذوق السليم ، والطبع المستقيم ، لا ما زعمه ابن سنان وغيره(٤) .

ما يراعى فى تأليف الكلمة :

واستنبط العلوى مما ذكره شروطا تجب مراعاتها فى تأليف الكلمة لتكون فصيحة وهى :

١ ــ ألا تكون حروف الكلمة متنافرة فى مخارجها ، فيحصل الثقل من أجل ذلك .

---

(٣) الطراز : ١/١٠٧، ١٠٨ .
(٤) الطراز : ١/١٠٨ ، ١٠٩ .

٢ ــ أن تكون معتدلة فى الوزن ، فان الأوزان ثلاثة : ثلاثية ، ورباعية ، وخماسية ، فأكثرها استعمالا الثلاثى لخفته ، وأبعدها الخماسى لكثرة حروفه ، وأوسطها الرباعى لحصوله بين الأمرين .

والتعويل فى ذلك على الذوق ، فان الكلمة ربما كثرت حروفها وهى خفيفة على اللسان كقوله تعالى « فسيكفيكهم الله » (٥) وقوله تعالى : « ليستخلفنهم فى الأرض »(٦) .

٣ ــ توالى الحركات ، فاذا حصل سكون فى الوسط كان أعدل ما يكون وأرق ، وان توالت ثلاث فتحات فهو أخف من حصول الفم فى وسطه ، ولهذا فان « فرسا » أخف من « عضد » . والمعيار فى ذلك هو الذوق ، ولهذا فانه قد يتوالى ضمتان وهو غير ثقيل كقوله تعالى : « فى ضلال وسعر »(٧) وقوله تعالى(٨) : « فعلوه فى الزبر »(٩) .

والشرطان الأول والثالث من الشروط التى اعتبرها ابن الأثير فى فصاحة الكلمة(١٠) ، أما الشرط الثانى فهو من شروط ابن سنان الخفاجى(١١) ، ولم يعتد ابن الأثير به ، وبين أن طول الكلمة لا يوجب قبحها ، وانما العبرة فى ذلك بتأليف الحروف بعضها مع بعض، واستدل بحسن الكلمات الطويلة فى القرآن الكريم ، وغيره(١٢) .

---

(٥) البقرة : ١٣٧ .
(٦) النور : ٥٥ .
(٨،٧) القمر : ٤٧ ، ٥٢ .
(٩) الطراز : ١/١٠٩ ، ١١٠ .
(١٠) ينظر المثل السائر : ١/٢٠٥ ، ١/١٠٦ ــ ١٠٨ .
(١١) ينظر سر الفصاحة : ٧٨ .
(١٢) المثل السائر : ١/٢٠٥ ــ ٢٠٦ .

وكلام العلوى فى هذا الشرط يناقض آخره أوله ، فانه شرط أن تكون الكلمة معتدلة فى الوزن ، ثم عاد وبين أن التعويل فى ذلك على الذوق ، وهذا نقض لما شرطه أولا ، اذ لا داعى له مادام المعول فى الحكم على الذوق .

ثانيا : ناحية الكلمة ذاتها :

لم يرتض العلوى ما قيل من أنه لا قبيح فى الألفاظ وأنها كلها حسنة ، وذلك لأمرين :

١ ـ أنه لو كان الأمر كذلك لم تقع تفرقة بين الألفاظ فى الأبنية والأوزان ، والخفة والثقل ، والثابت أن الألفاظ تتفاوت فى ذلك .

٢ ـ أنه لو كان الأمر كذلك لم تقع تفرقة بين الشاذ والمألوف ، والنادر والمستعمل من جهة الوضع والأمر عكس ذلك .

وساق العلوى أسماء للخمر ، وللأسد ، وللسيف ، مبينا تفاوت هذه الألفاظ من حيث الثقل والخفة كدليل على ما بين الألفاظ من تفاوت فى الحسن والقبح(١٣) .

وذكر العلوى شروطا لفصاحة الكلمة هى(١٤) :

١ ـ أن تكون اللفظة عربية قد تواضع عليها أهل اللغة...وليس بمنكر استعمال شىء من اللغات كالفارسية وغيرها على جهة التعريب نه ، وقد جاء ذلك فى القرآن الكريم .

وقد ورد هذا الشرط فى كلام ابن سنان(١٥) .

---

(١٣) الطراز : ١/١١٤ .
(١٤) الطراز : ١/١١٢ ـ ١١٦ .
(١٥) ينظر سر الفصاحة : ٦٧ ...

٢ ـ أن تكون الكلمة جارية على العادة المألوفة ، فلا تكون شاذة خارجة عن الاستعمال المطرد فى معناها وبنائها واعرابها وتصريفها ، فما خلف القياس وأوضاع اللغة فهو مردود .

هـذا من شروط ابن سـنان ، حـيث ذكر أن الكلمـة يجب أن تكون جارية على العرف العربى الصحيح(١٦) . ولم يعتد ابن الأثير بهذا الشرط لأن عدم جريان الكلمة على العرف العربى لا يوجب لهـا حسـنا ولا قبحا ، وانمـا يقدح فى معـرفة مستعملها بما ينقلبـه من الألفـاظ(١٧) .

٣ ـ أن تكون اللفظة خفيفة على الألسنة ، لذيذة على الأسماع ، حلوة الذوق ، وهذا الشرط يوجب عدم وجود تنافر فى الكلمة أو ثقـل فيها ، أو نبو فى السمع عند سماعها .

وقد أشار ابن سنان الى ذلك(١٨) ، كما بين ابن الأثير أن السمع أساس فى الحكم على الألفاظ بالحسن أو القبح(١٩) .

٤ ـ أن تكون اللفظة مألوفة فى الاستعمال ، فلا تكون وحشية ، ويقرب معناها فلا يبعد تناوله .

والمقصود بهذا الشرط اخراج الغريب الوحشى من دائرة الفصاحة، وقد ذكره بن سنان(٢٠) كما ذكره ابن الأثير(٢١) .

---

(١٦) ينظر سر الفصاحة : ٦٧ .
(١٧) المثل السائر : ١/١٧٥ .
(١٨) سر الفصاحة : ٥٥ .
(١٩) المثل السائر : ١/٩١ ، ١٦٩ .
(٢٠) ينظر سر الفصاحة : ٥٦ .
(٢١) ينظر المثل السائر : ١/١٧٥ ـ ١٨٠ .

٥ ــ أن يكون اللفظ مختصا بالجزالة والرقة ، والجزالة لا تعنى الوحشــية ، والرقة تعني الوحشــية ، والرقة لا تعنى الركاكة ٠٠٠٠ وقد أخذ العلوى هذا من كلام ابن الأثــير وضرب نفس الأمثــلة التى ذكرهــا(٢٢) ٠

ومن عرضنا لكلام العلوى فى فصاحة الكلمة نرى أنه لم يأتبجديد ولم يضف شيئا الى ما سبق أن ذكره ابن سنان ، وما ذكره ابن الأثير، نعم قد فرق العلوى شروط فصاحة الكلمة بين ناحيتين : تأليف حروف الكلمة ، والكلمة ذاتها ، ولكنها فكرة لا عائد من ورائها ، ولا تغير من الأمر شــيئا ٠

---

(٢٢) ينظر المثل السائر : ١/١٨٥ ـ ١٩٥ ٠

الخطيب القزوينى (ت ٧٣٩هـ) :

تناول الخطيب مصطلحى الفصاحة والبلاغة بالشرح والتحليل ، فى مقدمة كتابيه « التلخيص » و « الايضاح » وأشار فى بداية الحديث عنهما الى اختلاف الناس فى تفسيرهما ، وبين أن كلا من الفصاحة والبلاغة تقع صفة لمعنيين : الكلام والمتكلم ، فيقال : قصيدة فصيحة أو بليغة ، وشاعر بليغ أو فصيح ، كما يقال : رسالة فصيحة أو بليغة، وكاتب بليغ أو فصيح ، وتختص الفصاحة بوقوعها وصفا للمفرد ، فيقال : كلمة فصيحة ، ولا يقال : كلمة بليغة(١) .

وتفريق الخطيب بين الفصاحة والبلاغة من حيث وقوعهما وصفا الكلام والمتكلم،واختصاص الفصاحة بوقوعها وصفا للكلمة دون البلاغة قد سبق اليه ابن سنان الخفاجي ، وتبعه فيه ابن الأثير (٢) كما اسلفنا بيانه .

ويرى الشيخ عبد المتعال الصعيدى أن الخطيب اعتمد فى تقسيم البلاغة والفصاحة علي ما جاء فى « حسن التوسل » لأبى الثناء الحلبى (٣) . وهذا غير دقيق لسببين :

١ — أن هذا الكلام ورد عند ابن سنان وتبعه فيه ابن الأثير ، وهما سابقان للحلبى .

٢ — أن الحلبى لم يذكر هذا التقسيم فى حديثه عن البلاغة والفصاحة ، ولكنه قال : البلاغة أن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده ، من ايجاز بلا اخلال ، واطالة فى غير املال.والفصاحة : خلوص الكلام من التعقيد ، وقيل : البلاغة فى المعانى ، والفصاحة فى الألفاظ ، وقال :

---

(١) بغية الايضاح : ١/١٢ ، ١٢ ، والتلخيص : ٢٤ .

(٢) ينظر سر الفصاحة : ٤٩ ، ٥٠ والمثل السائر : ١/٩٢ ، ٩٤ .

(٣) بغية الايضاح : ١/١٢ .

معنى بليغ ، ولفظ فصيح ، والفصاحة خاصة تقع على المفرد ، يقال : كلمة فصيحة ولا يقال : بليغة وأنت تريد المفرد (٤) .

وبين بعد هذا فصاحة المفرد ، وفصاحة الكلام ، ولم يتحدث عن فصاحة المتكلم ولا عن البلاغة بنوعيها (٥) .

وهذا يثبت بعد كلام الخطيب عن كلام الحلبى ، وعدم اعتماده عليه فى التقسيم .

ولم يعلل الخطيب لعدم وصف الكلمة بالبلاغة الا بقوله : لا يقال كلمة بليغة ، وعلل السعد ذلك بعدم السماع ، اذ لم يسمع عن العرب كلمة بليغة (٦) .

وقيل فى تعليل ذلك : ان البلاغة معناها المطابقة لمقتضى الحال ، وهذه المطابقة انما تحصل برعاية الاعتبارات الزائدة على أصل المراد ، فلا تتحقق فى المفرد ، انما تتحقق فى الجملة المفيدة .

ورد السعد وغيره هذا التعليل بما حاصله : أن هذا التعليل انما يتم ان سلم الا بلاغة الا ما ذكر ، فاذا جاز أن تكون ثم بلاغة أخرى يصح وجودها فى الكلمة غير المطابقة ، لم يكن ذلك علة فى عدم وصف الكلمة بالبلاغة ، فان قال هذا المعلل : لا معنى للبلاغة فى كلام العرب الا هذا المعنى ، وهو محال فى الكلمة ، فقد عاد الى انتفاء السماع ، وهو ما علل به السعد ومن تبعه (٧) .

---

(٤) حسن التوسل : ١٠٣ .

(٥) ينظر حسن التوسل : ١٠٢ ـ ١٠٤ .

(٦) المختصر (ضمن الشروح) : ١/٧٤ .

(٧) مختصر السعد ، وحاشية الدسوقى ، ومواهب الفتاح : ١/٧٤

وهذا الرد مبنى على أمر مفروض لا وجود له فى الحقيقة ، فلا يصح فى ابطال التعليل الصحيح المبنى على تفسير البلاغة طبقا لما انتهى اليه العلماء ، ومن ثم فهو تعليل مقبول ، اضافة الى أنه لا يتعارض مع ما قالوه من عدم السماع ، والجمع بينهما قوة للتعليل .

فصاحة الكلمة :

وتحدث الخطيب عن فصاحة الكلمة المفردة فقال : فصاحة المفرد هى خلوصه من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس (٨) .
وبذلك جعل لفصاحة الكلمة ثلاثة شروط :

١ — خلوها من تنافر الحروف .

٢ — خلوها من الغرابة .

٣ — خلوها من مخالفة القياس .

وفصل كل شرط منها كما سيتضح فيما يلى :

١ — تنافر الحروف :

بين الخطيب أنه على قسمين :

الأول : ما تكون الكلمة بسببه متناهية فى الثقل على اللسان ، وعسر النطق بها ، كما فى كلمة « العهخع » .

والثانى : ما هو دون ذلك فى الثقل ، كما فى كلمة « مستشزر » فى قول امرىء القيس :

غدائره مستشزرات الى العلا
تضل المدارى فى مثنى ومرسل (٩)

---

(٨) بغية الايضاح : ١/١٢ .
(٩) السابق : ١/١٢ ، ١٣ .

وهذا الشرط مستفاد مما ذكره ابن سنان من كون الكلمة مؤلفة من حروف متباعدة ، وغير مكروهة فى السمع ، ومعتدلة التأليف • وقد اعتبره السكاكي فى فصاحة الكلمة كما بينا فى حديثنا عنه •

ولم يعرف الخطيب التنافر ، وعرفه السعد بأنه : وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها (١٠) • كما لم يبين ضابط التنافر ولا مرجع الحكم به ، وبين السعد ومن تبعه أن الضابط فى ذلك هو الذوق الصحيح ، فما يعده ثقيلا متعسر النطق به فهو متنافر ، سواء كان من قرب المخارج أو بعدها أو غير ذلك ، ولا يصلح قرب المخارج أو بعدها ضابطا للتنافر لعدم اطراده فيهما (١١) • وهذا رأى ابن الأثير كما أسلفنا بيانه •

٢ ــ الغرابة :

بين الخطيب معناها وهو أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها، فيحتاج فى معرفته الى أحد شيئين :

١ ــ أن يبحث عنها فى كتب اللغة المبسوطة كما فى لفظتى « تكأكأتم » بمعنى اجتمعتم ، و « افرنقعوا » بمعنى انصرفوا •

٢ ــ أن تخرج على وجه بعيد كلفظ « مسرجا » فى قول العجاج:

وفاحما ومرسنا مسرجا

فانه لم يعرف ما أراد بقوله « مسرجا » حتى اختلف فى تخريجه، فقيل : هو من قولهم للسيوف سريجية منسوبة الى قين يقال له سريج،

---

(١٠) المطول : ١٨ •

(١١) مختصر السعد ، وحاشية الدسوقى ، ومواهب الفتاح ١/٨٠ ، ٨١ •

يريد أنه فى الاستواء والدقة كالسيف السريجى • وقيل : من السراج، يريد أنه فى البريق كالسراج • وهذا يقرب من قولهم « سرج وجهه » بكسر الراء : أى حسن • وسرج الله وجهه أى بهجه وحسنه (١٢) •

وهذا الشرط من الشروط التى اعتبرها ابن سنان الخفاجى ، والمثالان اللذان ذكرهما الخطيب واردان ضمن ما مثل به الغرابة •

وللسبكى نظر فى تفسير الخطيب للغرابة ، لأن تفسيره لها يقتضى أن تكون غرابة معنى لا غرابة كلمة ، ومن ثم مال الى أن الغرابة هى قلة الاستعمال ، كما يقتضيه كلام السكاكى (١٣) • فمن شروط فصاحة الكلمة عنده دورانها على ألسنة العرب الفصحاء (١٤) •

ولعل هذا ما جعل السعد يفسر الغرابة بكون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ، ولا مألوفة الاستعمال(١٥) • فجمع فى تفسير لها بين كلام الخطيب وكلام السكاكى •

ولم ينظر الخطيب الى الغريب باعتبار الناطقين به وزمانهم ، ومن ثم لم يقسمه من هذه الناحية ، وقسمه بعض شراح التلخيص بهذا الاعتبار قسمين : غريب حسن وغريب قبيح ، فالغريب الحسن لا يعاب استعماله على العرب الخلص دون المولدين لأنه لم يكن وحشيا عندهم، وهو لا يخل بالفصاحة،ومنه غريب القرآن والحديث الشريف،والغريب القبيح يعاب استعماله مطلقا،وهو الوحشى الغليظ،ويجمع بجانب الغرابة

---

(١٢) بغية الايضاح : ١/١٥ ، ١٦ •
(١٣) عروس الأفراح : ١/٨٧ •
(١٤) مفتاح العلوم : ٤١٦ •
(١٥) المطول : ١٨ •

الثقل علي السمع ، ومنه : « جحيش » بمعنى فريد ، و « جفخت » بمعنى فخرت (١٦) .

وهم فى هذا التقسيم تابعون لابن الأثير ، فهو الذى ذهب الى هذا التقسيم واهتم بتفصيله وضرب الأمثلة له(١٧) .

واذا كان الخطيب لم يتعرض فى تفسير الغرابة لبيان موقفه من غريب القرآن الكريم ، وغريب الحديث الشريف ، فان تعريفه للغرابة يخرجهما من دائرتها ، لأنه يقصد بالغريب : الوحشى المهجور الذى يحتاج الى بحث فى الموسوعات اللغوية الكبرى ، وذلك ينطبق على الكلمات التى توشك أن يميتها الزمن ، ويبتلعها التاريخ ، أما ما يعده العلماء من غريب القرآن والحديث فهو مستعمل ودائر على الألسنة وليس وحشيا متوعرا ، انه الغريب الحسن الذى يناقض المبتذل بجزالته وعلو طبقته ، ولا صلة له بالغريب الخارج عن الفصاحة (١٨) .

٣ — مخالفة القياس :

ولم يذكر الخطيب ضابطا لهذا الشرط ، ومثل له بقول الشاعر :

الحمد لله العلى الأجلل

فلفظ « الأجلل » غير فصيح لمخالفته القياس ، فان قياسه « الأجل » بالادغام (١٦) .

وعرف السعد مخالفة القياس بقوله · أن تكون الكلمة على خلافة

---

(١٦) المطول المطول : ١٨ ، ومواهب الفتاح : ١/٨٣ .
(١٧) ينظر المثل السائر : ١/١٧٥ ، ١٧٦ .
(١٨) ينظر خصائص التراكيب : ٣٤ ، ٣٥ .
(١٩) بغية الايضاح : ١/١٦ ، ١٧ .

قانون مفردات الألفاظ الموضوعة ، أعنى على خلاف ما ثبت عن الوضع (٢٠) .

فالمخالفة تعنى أن تكون الكلمة مخالفة لما يثبت عن الواضع،سواء خالفت القياس الصرفى المستنبط من تتبع لغة العرب أو خالفته .

وعلى هذا يعد من الفصيح كل ما وافق الثابت عن الواضع وكان مخالفا للقانون الصرفى ، كما فى الشواذ الثابتة سماعا ، دون أن تكون خاضعة للقواعد الصرفية ، مثل : استحوذ ، وعور ، وآل ، فان القياس: استحاذ ، وعار ، وأهل ، وقد جاءت مخالفة لهذا القياس ، ومع ذلك فهى فصيحة ، لموافقتها ما ثبت عن الواضع (٢١) .

ولما كانت العبرة بما ثبت عن الواضع ، آثر بعض العلماء تعبير « مخالفة الوضع » على تعبير « مخالفة القياس » لأنه أنسب بالمعنى المراد (٢٢) .

ويدخل فى مخالفة القياس اللغوى كل ما تنكره اللغة لمأخذ لغوى أو صرفى (٢٣) وقد سبق ابن سنان الى ايضاح ذلك ، وأشار الى أن الضرورات الشعرية التى أجازها اللغويون كصرف ما لا ينصرف ، وقصر الممدود وغير ذلك ، لا تؤثر كثيرا فى فصاحة الكلمة ، ولكنه يؤثر صيانة الكلمة عنها ، لأن الفصاحة تنبىء عن اختيار الكلمة وحسنها ، وهذه

---

(٢٠) مختصر السعد : ٨٨/١ ، والمطول : ١٩ .
(٢١) حاشية الدسوقي : ٨٨/١ . والمنهاج الواضح : ٢٦ .
(٢٢) المنهاج الواضح : ٢٤ .
(٢٣) بغية الايضاح : ١٧/١ .
(٢٤) سر الفصاحة : ٧٣ ، ٧٤ .

الضرورات صفات نقص فيهـا فيجب اطراحها(٢٤) ولم يبين الخطيب موقفه من هذه الضرورات ، وظاهر كلامه يقتضى أن كل ضرورة ارتكبها شاعر تخرج الكلمة عن الفصاحة(٢٥) •

وهذه الشروط الثلاثة لفصاحة الكلمة ، قد أوردها الشهاب الحلبى، وعرضنا لها عنده ، ولكنه لم يفصل الكلام فيها كما فصل الخطيب ، ولا يمكن الحكم بنقل الخطيب عن الشهاب ، لأن هذه الشروط وردت عـند ابن سنان ، كما وردت فى كلام السـكاكى الذى هو أسـاس تلخيص الخطيب وايضاحه ، كما وردت فى كلام بدر الدين بن مالك •

شرط فيه نظر :

وعرض الخطيب اشرط من شروط فصـاحة الكلمـة عند بعـض البلاغيين وهو : عدم كراهة الكلمة فى السمع ، وأشار الى أن له نظرا فيه • فقال : وقيل : فصاحة المفرد هى خلوصه مما ذكر ، ومن الكراهة فى السمع ، بأن تمج الكلمة ويتبرأ من سـماعها كما يتبرأ من سـماع الأصوات المنكرة ، فان اللفظ من قبيل الأصـوات ، والأصـوات منها ما تستلذ النفس سماعه ومنها ما تكره سماعه ، كلفظ « الجرشى فى قول أبى الطيب :

كريـم الجرشى شـريف النسـب

أى كريم النفس • وفيه نظر (٢٦) •

وعدم كراهة الكلمة فى السمع من الشروط التى اعتبرها ابن سنان فى فصاحة الكلمة ، اذ بين أن اللفظة الفصيحة نجد لها حسنا فى السمع

---

(٢٥) ينظر عروس الأفراح : ٨٨/١ •

(٢٦) بغية الايضاح : ١٧/١ ، ١٨ • وصدر البيت : مبارك الاسم أعز اللقب •

وقبولا بخلاف ما يكرهه السمع وينبو عنه فهو غير فصيح ومن أمثلته لفظ « الجرشى » بمعنى النفس فى قول أبى الطيب السابق (٢٧) .

ويرى ابن الأثير أن السمع أساس فى الحكم على الألفاظ بالحسن أو القبح ، لأن الألفاظ من قبيل الأصوات ، فما استلذه السمع منها فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح (٢٨) .

وأشار الدسوقى الى أن قائل هذا بعض معاصرى الخطيب القزوينى (٢٩) . ولا شك فى أنه استفاد هذا الشرط من ابن سنان الخفاجي ، اذ هو السابق الى ذكره كما أسلفنا .

وقد ذكر الخطيب أن له نظرا فى هذا الشرط ، ولكنه لم يفصح عن هذا النظر . ووجه السعد هذا النظر بأن الكراهة فى السمع داخله تحت الغرابة المفسرة بالوحشية ، اظهور أن الجرشى من قبيل تكأ كأتم ، وافرنقعوا ، وغيرها (٣٠) .

وقيل فى توجيهه : ان الكراهة فى السمع وعدمها راجعة الى قبح الصوت وعدم قبحه ، لا الى ذات اللفظ ، فكم من لفظ فصيح يستكره فى السمع اذا أدى بصوت منكر ، وكم من لفظ غير فصيح يستلذ سماعه اذا أدى بصوت طيب ، وحينئذ لو احترز عن الكراهة فى السمع ، لخرج كثير من الكلمات المتفق على فصاحتها ، بسبب نطق قبيح الصوت (٣١) .

ورد السعد على هذا التوجيه بما حاصله : لا نسلم أن الكراهة فى السمع وعدمها انما يرجعان لقبح الصوت وحسنه لا لنفس اللفظ ،

---

(٢٧) سر الفصاحة : ٥٥ ، ٥٦ .
(٢٨) المثل السائر : ١/٩١ ، ١٦٩ .
(٢٩) حاشية الدسوقى : ١/٨٩ .
(٣٠) المطول : ١٩ .
(٣١) المطول : ١٩ ، ومواهب الفتاح ١/٩٢ ، ٩٣ .

اذ لو كان كذلك لزم أن يكون الجرشى غير مكروه فى السمع الا اذا سمع من قبيح الصوت ، وليس كذلك ، للقطع بكراهته دون مرادفـة وهو النفس وان نطق به حسن الصوت (٣٢) •

كما قيل فى توجيه نظر الخطيب : ان الكراهة فى السمع ان أدت الى الثقل فقد دخلت تحت التنافر ، والا فلا تخل بالفصاحة •

وعلق السعد على هذا التوجيه بأن ضعفه ظاهر (٣٣) • وانما كان ضعيفا لأنه قيد الكراهة المخلة بالفصاحة بأن تفضى الى التنافر ، وعند ذلك تكون داخلة فيه ، بينما الذى شرط خلوص الكلمة منها ، لم يقيدها بذلك ، اذ لو قيدها به لم يكن ثمت داع للنص عليها اكتفاء بالتنافر ، كما أنه لم يجعل الكراهة قسمين : مخلة بالفصاحة وغير مخلة بها ، انما شرط خلو الكلمة من الكراهة على العموم •

ومن رد الخطيب لشرط الكراهة فى السمع نفهم أنه يعتبر الشروط الثلاثة التى ذكرها هى أسس فصاحة الكلمة ، وما عداها داخل فيها ، أو ظاهر لا يحتاج للنص عليه ، أو غير معتبر عنده فى فصاحة الكلمة •

ووجه حصر فصاحة الكلمة فى خلوها من هذه العيوب الثلاثة أن الكلمة لها مادة وهى حروفها ، وصورة وهى صيغتها ، ومعنى ، وحينئذ فعيبها اما فى مادتها وهو التنافر ، أو فى صورتها وهو مخالفة القياس ، أو فى معناها وهو الغرابة (٣٤) •

---

(٣٢) حاشية الدسوقى : ١/٩٠ ، وينظر المطول : ١٩ ، ومواهب الفتاح : ١/٩٣ •

(٣٣) المطول : ١٩ •

(٣٤) حاشية الدسوقى : ١/٧٦ •

علامة كون الكلمة فصيحة :

وبعد أن بين الخطيب شروط فصاحة الكلمة ذكر علامة يستدل منها على فصاحتها وهي : أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لهـا كثيرا ، أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها (٣٥) .

وهذه العلامة سبق اليها السكاكى (٣٦) ، وأخذها الخطيب عنه ، وتعقبه السبكى فيها ، فقد قال بعد أن ذكرها : وقولـه : أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها ، فيه نظر : لاستلزامه أن مراتب الفصاحة لا تتفاوت ، لأنه اذا كان استعمالهم لها أكثر من غيرها ، وجعلناه دليل الفصاحة ، فلا يكون غيرها فصيحا بحال : ولا يقال : قوله كثيرا يرفع هذا الوهم ، لأنه انما يقصد بقوله أن يكون استعمالهم لها كثيرا ، كون الكلمة ليس لها مرادف ، فكثرة استعمالها دليل فصاحتها ، أما اذا كان كلمتان مترادفتان ، فقد شرط فى فصاحة احداهما الأكثرية ، ولا شك أن رتب الفصاحة متفاوتة ، ولو كان مراده الكثرة من كلمة لها مرادف، لما قال : أو أكثر ، لأن الأكثر كثير (٣٧) .

وعلى هذا فالأدق أن يقتصر على الجزء الأول من هذه العلامة ، وهو : أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لها كثيرا ، لتحاشى هذا النظر .

وبهذا ينتهى حديثنا عن فصاحة الكلمة عند الخطيب القزوينى ، وقد رأينا أنه جمع شروط فصـاحة الكلمـة فى ثلاثـة شروط ، وطرح ما عداها ، وعلى رأيه ومنهجه سار البلاغيون من بعده . وهذا ما دعانا الى تأخير الكلام عنه رغم تقدمه على بعض العلماء السابقين .

---

(٣٥) بغية الايضاح : ١٨/١ .
(٣٦) مفتاح العلوم : ٤١٦ .
(٣٧) عروس الأفراح : ٩٤/١ .

وهذه الشروط الثلاثة وان كانت تجمع جل ما قاله العلماء السابقون من شروط الا أنها فى حاجة الى شرط كان ينبغى للخطيب أن ينص عليه، وهو عدم ابتذال الكلمة ، لأهمية هذا الشرط فى فصاحة الكلمة ، وعدم اندراجه فيما ذكره من شروط •

ولسنا مع الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى قوله : ان ابتذال الكلمة لا يعيبها ، ما دامت معانى الكلام جيدة ، مستندا فى ذلك الى ما اختاره ابن شرف القيروانى ، وما عليه بعض نقاد الانجليز الذين يرون أن الابتذال يكون فى الفكرة لا فى الكلمة (٣٨) • لأن الفكرة الجيدة تحتاج الى ألفاظ جيدة تبرزها فى مظهر حسن ، وحلة أنيقة ، ولنا المثل الأعلى فى القرآن الكريم الذى جمع أسمى المعانى فى أبدع الألفاظ ، وهو ما يجب أن تخضع لأسلوبه مقاييس الفصاحة • والنقاد العرب مجمعون على أن ركاكة الكلمة وابتذالها مما يفسدها ويهجنها ، ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما (٣٩) •

---

(٣٨) بغية الايضاح : ١/١٤ • والبلاغة العالية : ١٩ •
(٣٩) البيان والتبيين : ١/١٣٥ •

خاتمـــــة

تتبعنا فيما سبق مقاييس فصاحة الكلمة فى تراث البلاغيين ، بدءا من ظهور الملاحظات النقدية الفطرية ، وانتهاء بالخطيب القزوينى •

وقد رأينا فى خلال هذه المسيرة ، أن هذه المقاييس بدأت بملاحظات نقدية فطرية ظهرت على ألسنة الشعراء والخطباء والبلغاء ، وتطورت الى وصايا ونصائح وردت فى صحف الأدباء والعلماء ، وسجل الجاحظ كثيرا من هذه الملاحظات والوصايا ، وأضاف اليها من فكره ، مما جعلها تأخذ طورا جديدا يهتم فيه بدراستها وشرحها والتوسع فيها ، حـــتى بلغت مرحلة الازدهار على يدى ابن سنان الخفاجى •

وانصرف جهد من جاء بعده الى الضبط والتلخيص ، أو الشرح والتحليل ، مع مناقشة بعض آرائه ، حتى وصل الأمـــر الى الخطيب القزوينى فضبط مقاييس فصاحة الكلمة فى خلوها من عيوب ثلاثـــة : تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس ، وقد ملكت هذه المقاييس الثلاثة زمام الفكر البلاغى فى فصاحة الكلمة حتى يومنا هذا •

بيد أن بعض الباحثـــين فى العصر الحديث لهم وجهـــات نظر فى بعض المقاييس البلاغية لفصاحة الكلمة ، أو بعض الأمثلة التى أوردها البلاغيون ، وهذا ما لم نشأ أن نعرض له فى هذا البحث ، آملـــين أن تتاح لنا فرصة أخرى نفصل فيها الحديث عن ذلك •

والله الموفق والمستعان • وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •

المراجــع

١ ــ أثر القرآن فى اللغة العربية ــ أحمد حسن الباقورى ــ دار المعـارف •

٢ ــ أصول البلاغة ــ كمال الدين البحـراني ــ ت د• عبد القادر حسين ــ دار الشروق ١٩٨١ م •

٣ ــ الاشارات والتنبيهـات فى علـم البلاغـة ــ الجـرجانى ــ ت د• عبد القادر حسين ــ نهضة مصر ١٩٨٢ •

٤ ــ الأغانى ــ أبو الفرج الأصفهانى ــ ط دار الكتب المصرية •

٥ ــ الأقصى القريب فى علم البيان ــ التنوخى ــ ط السعادة ١٣٢٧هـ

٦ ــ الأكسير فى علم التفسير ــ الطوفى ــ ت د• عبد القادر حسين ــ مكتبة الأداب ١٩٧٧ •

٧ ــ بغية الايضاح ــ القزوينى والصعيدى ــ مكتبة الآداب •

٨ ــ البلاغة تطور وتاريخ ــ د•شوقى ضيف ــ دار المعارف •

٩ ــ البلاغة العالية ــ عبد المتعال الصعيدى ــ مكتبة الآداب •

١٠ ــ البيان والتبيين ــ الجاحظ ــ ت عبد السـلام هارون ــ دار الفكر ــ بيروت •

١١ ــ التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان ــ الطيبى ــ ت د•هادى عطية ــ بيروت •

١٢ ــ التلخيص ــ القزوينى ــ شرح البرقوقى ــ دار الفكر العربى ــ بيروت •

١٣ ــ الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور ــ ابن الأثير ــ ت د. مصطفى جواد ود. جميل سعيد ــ ط المجمع العلمى العراقى ١٩٥٦ .

١٤ ــ جوهر الكنز ــ ابن الأثير الحلبى ــ ت د. محمد زغلول سلام ــ منشأة المعارف .

١٥ ــ حاشية الدسوقى على مختصر السعد ــ محمد الدسوقى ــ عيسى الحلبى .

١٦ ــ حسن التوسل الى صناعة الترسل ــ شهاب الدين الحلبى ــ ت أكرم عثمان ــ بغداد ١٩٨٠ م .

١٧ ــ الحيوان ــ الجاحظ ــ ت عبد السلام هارون ــ مصطفى الحلبى ــ القاهرة .

١٨ ــ خصائص التراكيب ــ د. محمد أبو موسى ــ مكتبة وهبة ــ القاهرة .

١٩ ــ الخصائص ــ ابن جنى ــ ت النجار ــ ط دار الكتب المصرية ١٩٥٥ .

٢٠ ــ دلائل الاعجاز : عبد القاهر الجرجانى ــ ت المراغى .

٢١ ــ سر صناعة الاعراب ــ ابن جنى ــ مصطفى الحلبى ــ ١٩٥٤ .

٢٢ ــ سر الفصاحة ــ ابن سنان الخفاجى ــ ت عبد المتعال الصعيدى ــ مكتبة صبيح .

٢٣ ــ الصحاح ــ الجوهرى ــ ت أحمد عطار ــ ط ٢ ــ ١٩٨٢ ــ القاهرة .

٢٤ ـ الصناعتين ـ العسكرى ـ ت البجاوى وأبى الفضل ـ ط عيسى الحلبى .

٢٥ ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ـ العلوى ـ ط المقتطف .

٢٦ ـ عروس الأفراح ـ بهاء الدين السبكى ـ ط عيسى الحلبى .

٢٧ ـ الغرابة فى الحديث النبوى ـ د. عبد الفتاح البركاوى ـ مطبعة حسان ـ القاهرة .

٢٨ ـ قانون البلاغة ـ البغدادى ـ ت د. محسن غياض ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

٢٩ ـ المثل السائر ـ ابن الأثير ـ ت د. الحوفى ود. طبانة ـ نهضة مصر .

٣٠ ـ المختصر ـ سعد الدين التفتازانى ـ ضمن الشروح ـ ط عيسى الحلبى .

٣١ ـ المدخل الى دراسة البلاغة ـ د. فتحى فريد ـ النهضة المصرية

٣٢ ـ المصباح فى المعانى والبيان والبديع ـ بدر الدين بن مالك ـ ت د. حسنى عبد الجليل ـ مكتبة الآداب ـ ١٩٨٩ .

٣٣ ـ المطول ـ سعد الدين التفتازانى ـ ط أحمد كامل .

٣٤ ـ معجم المصطلحات البلاغية ـ د. أحمد مطلوب ـ المجمع العلمى العراقى .

٣٥ ـ مفتاح العلوم ـ السكاكى ـ ت نعيم زرزور ـ الكتب العلمية ـ بيروت .

٣٦ ـ من بلاغة القرآن ـ د• أحمد بدوى ـ نهضة مصر •

٣٧ ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ـ حازم القرطاجنى ـ ت الحبيب ابن الخوجة ـ بيروت •

٣٨ ـ المنهاج الواضح للبلاغة ـ حامد عونى ـ ط ٢ ـ ١٩٥١ •

٣٩ ـ مواد البيان ـ على بن خلف الكاتب ـ ت د• حسين عبداللطيف ـ جامعة الفاتح ـ طرابلس ١٩٨٢ •

٤٠ ـ مواهب الفتاح ـ ابن يعقوب المغربى ـ ط عيسى الحلبى •

٤١ ـ نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ـ ت كمال مصطفى ـ ط ٣ ـ القاهرة •

٤٢ ـ النكت فى اعجاز القرآن ـ الرمانى ـ ت محمد خلف الله وزغلول سلام ـ دار المعارف •

٤٣ ـ نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز ـ الرازى ـ ط الآداب ـ ١٣١٧ هـ •

موضوعات الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩١/٧٦٢٤